تُوفه يانسون

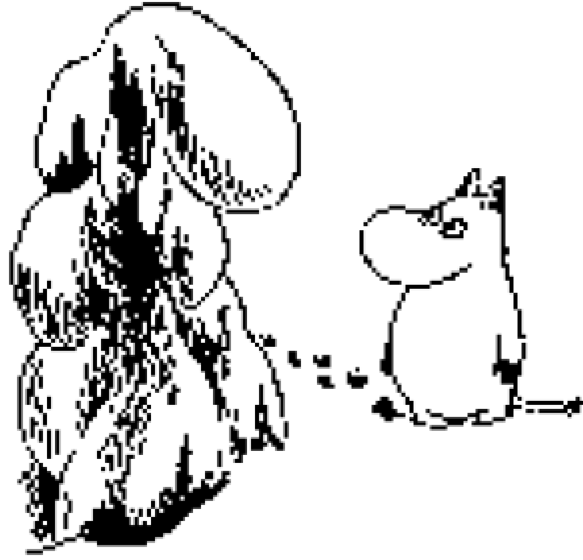
منتصف الشتاء في وادي المومين

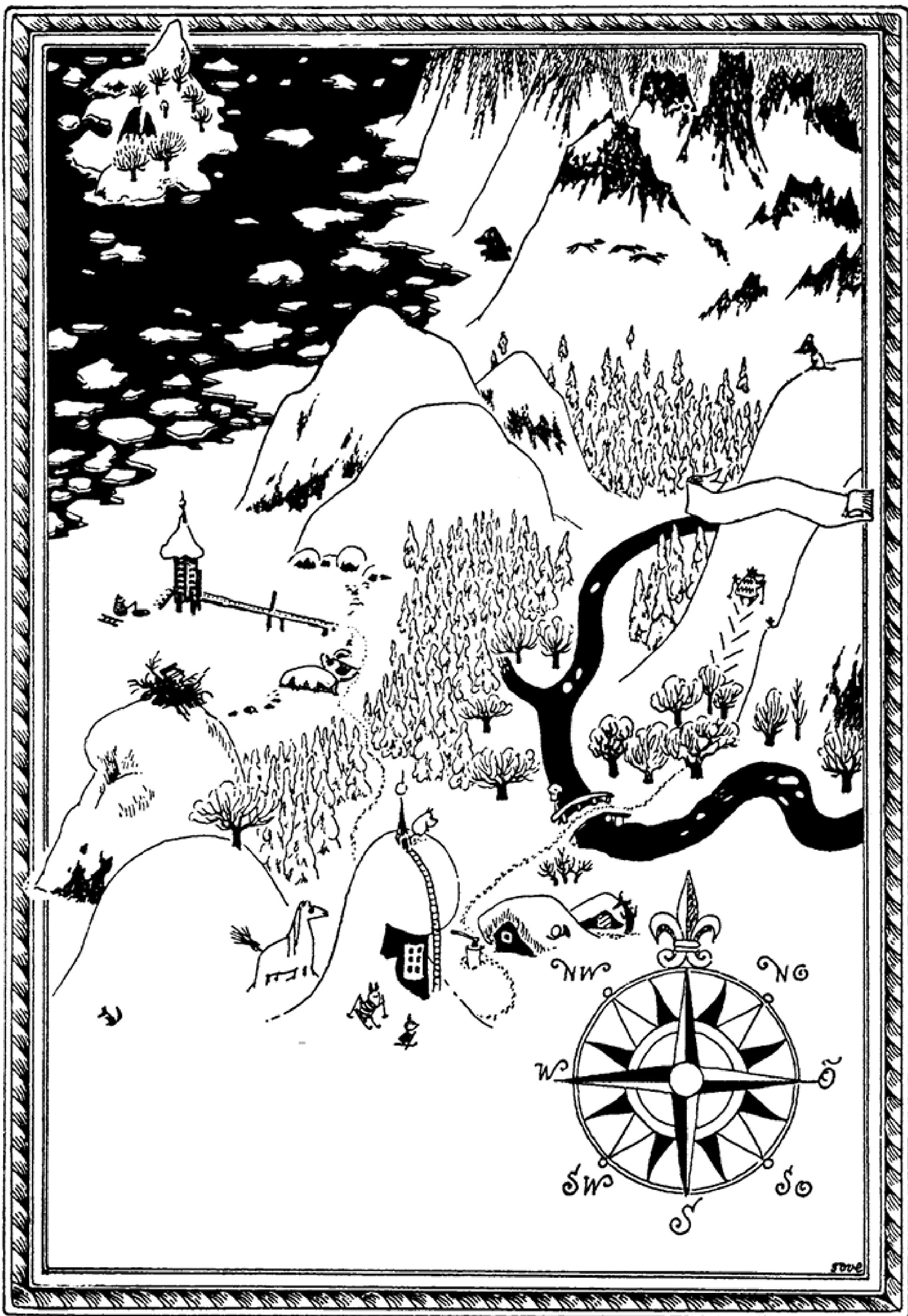
دار المنى



منتصف الشتاء في وادي المومين

«مكتبة ♔ النخبة»




NW
NO
W
Ö
SW
SO
S
Tove

ثُوفَه يانسون

منتصف الشتاء

في وادي المومين



النص العربي: سكينة إبراهيم

دار المنى

توفه يانسون ١٩١٤-٢٠٠١ هي الابنة البكر لعائلة تميزت بالحس الفني. كان والدها فيكتور يانسون نحاتا معروفا، ووالدتها رسامة اسمها سيني هامر

يانسون. في سنة ١٩٦٨ كتبت توفه يانسون كتابا بعنوان Bildhuggarens dotter وصفت فيه عائلتها البوهيمية الفنية، وطفولتها في ظلّ هذا الجو في مدينة هلسنكي حيث كانت تقطن العائلة. كان فصل الصيف يعني لها كثيرا حيث درجت على قضاء إجازتها في الريف الفنلندي الغني بجزره وشواطئه.

في ذلك الجوّ، كان امتلاك توفه للميول الفنية أمرًا متوقعا. أنهت دراستها الثانوية في الخامسة عشر من عمرها، ودرست الفنون في هلسنكي وباريس. سافرت إلى عدة مدن أوروبية، وعرضت فيها نتاجها الفني.

ظهر أول كتبها عن المومين سنة ١٩٤٥، وكانت تنشر كتاباتها موقعة بإسم سنورك في مجلة غارم التي درجت آنذاك على نشر الرسوم المضحكة التي تمازح السياسيين وغيرهم، ثم حولت شخوصها إلى أبطال لقصصها في مجموعة قصصية سُميتْ بكتب المومين، وهي مجموعة لقيت رواجا منقطع النظير في أوروبا والعالم كله، ونقلت إلى ما لا يقل عن ٤٠ لغة. وتحولت أيضا إلى أفلام ومسرحيات في الراديو والتلفزيون.

حصلت توفه يانسون على جوائز أدبية عديدة؛ منها جائزة هانز كريستيان اندرسين في عام ١٩٥٣ وفي عام ١٩٧٢ حصلت على جائزة مورباكا السويدية، وجائزة فنلندا التقديرية عام ١٩٩٣، وجائزة الأكاديمية السويدية عام ١٩٩٤.

Arabic edition Dar Al-Muna 2008

Original title: Trollvinter Arabic text: Sukainah Ibrahiem First Published by Schildts Förlags AB, Esbo, Finland Layout: Zanko Dasko Printed in Sweden

ISBN 978 91 85365 40 1

Dar Al.Muna

Box 127

SE-182 05 Djursholm Sweden

www.daralmuna.com

الى والدتي



الفصل الأول
الصالة المطوّقة بالثلج

كانت السماء سوداء تقريبًا، لكن الثلج تلألأ بزرقة لامعة في نور القمر.

اضطجع البحر نائمًا تحت الجليد، وعميقًا بين جذور الأرض كانت جميع الكائنات الصغيرة هاجعة تحلم بالربيع. إلا أن الربيع كان لا يزال بعيدًا نوعًا ما، فالسنة تعدّت مطلعها منذ فترة قصيرة فقط.

في الموضع الذي بدأ منه الوادي صعوده المتدرّج اللطيف نحو الجبال، كان ثمّة بيت مطوّق بالثلج. وبدا منعزلاً جدًا، بل بالأحرى بدا مثل كتلة ثلج معتوهة. وإلى جواره جرى فرع من النهر، ولاح أسود كالفحم بين حفاف الثلج. ومع أن التيّار أبقى الجدول جاريًا طوال الشتاء، إلا أنه لم يكن هناك آثار على الطريق تقود صعودًا إلى الجسر، ولا أحد مسّ الكتلة الثلجية المحيطة بالبيت.

في الداخل، كان البيت دافئًا ومريحًا. وكانت أكوام فحم المستنقعات تحترق بتؤدة في موقد التدفئة المركزية في القبو. وفي بعض الأحيان مرّ القمر في زيارة عابرة بنافذة الصالة، مرسلاً شعاعه على الملاءات البيضاء التي تجلّل الكراسي في الشتاء، وعلى الثريا البلورية المغطاة بكيس الشاش الأبيض. وفي الصالة أيضًا، حول أكبر موقد خزفي في البيت، تجمّعت عائلة المومين وقد هجعت في بياتها الشتوي الطويل.

لطالما نامت العائلة من شهر نوفمبر إلى إبريل، لأن هذا ما درج عليه أسلافها. والمومين يتمسّكون بالتقاليد. وكان الجميع قد ملأوا بطونهم قبل النوم بوجبة طعام جيّدة من إبر الصنوبر، كما اعتاد أن يفعل أسلافهم تمامًا. وإلى جانب الأسرّة جهّز كلّ واحد منهم كلّ ما قد يحتاجه في مطلع الربيع: مجارف وعدسات حارقة وأشرطة أفلام، ومقاييس الرياح، وما شابه ذلك.

كان الصمت في البيت عميقًا ومتوقّعًا.

وبين حين وآخر ندّتْ عن أحدهم تنهيدة، فيما هو يزداد تقوقعًا على نفسه تحت اللحاف.

انتقل شريط ضوء القمر من الكرسي الهزّاز إلى منضدة الصالة، زحف فوق مقابض أطراف السرير النحاسية، ثم شعّ مباشرة على وجه مومين ترول.

حينئذ، حدث شيء لم يسبق له أن حدث من قبل، ليس منذ أن لجأ المومين الأول إلى مهجعه الشتوي. استيقظ مومين ترول واكتشف أنه عاجز عن العودة إلى النوم ثانية.

رنا إلى ضوء القمر وخنشار الصقيع على النافذة. استمع إلى هدير الموقد المركزي في القبو، وبدأ الشعور بالصحو والدهشة يغمره أكثر فأكثر. في النهاية، نهض وقصد سرير ماما مومين.

شدّ أذنها بحذر كبير، لكنها لم تستيقظ. فقط تقوقعت على شكل كرة لا مبالية.

"ما دامت ماما لم تستيقظ فلا فائدة من المحاولة مع الآخرين،" فكّر مومين ترول ومضى وحده يتجوّل في البيت الغريب الغامض. كانت الساعات قد

توقّفت عن العمل منذ وقت طويل، وكلّ شيء حوله اكتسى بطبقة رقيقة من الغبار. وما زال وعاء حساء إبر الصنوبر الذي تخلّف عنهم من نوفمبر مستقرًا على منضدة الصالة. وفي كيس الشاش كانت الثريا البلورية تطنطن لنفسها بهدوء.

اعترى الخوف مومين ترول فورًا، وتسمّر في الظلام الدافئ قريبًا من شريط ضوء القمر. كان يشعر بوحدة فظيعة.

"قومي ماما!" صاح. "ضاع العالم كله!" ثم عاد إلى أمّه وشدّ لحافها.

لكن ماما مومين لم تستيقظ. للحظة اضطربت أحلامها عن الصيف وتشوّشت، إلا أنّها لم تستطع فتح عينيها. تقوقعت ماما مومين على نفسها وواصلت ليلة الشتاء الطويلة مُضيّها.

عند الفجر بدأت كومة الثلج على السطح تتزعزع. ثم انزلقت قليلاً، ثم تقدّمت بعناد نحو حافّة السطح، وانحدرت نزولاً لتستقرّ أرضًا مُصدرة صوت خبط طفيف.

غدتْ كلّ النوافذ الآن مدفونة في الثلج، لكن ضوءًا رماديًا باهتًا وجد طريقه إلى الداخل. بدت الصالة غير واقعية أكثر من أي وقت مضى، كما لو أنّها في أعماق الأرض.

نصب مومين ترول أذنيه وأنصت مدّة طويلة. ثم أشعل قنديل الزيت وتهادى ماضيًا إلى صندوق الأدراج ليقرأ رسالة سنفكين الربيعية. كانت كالعادة تحت

منصّة الغليون الصغيرة، ولا تختلف كثيرًا عن الرسائل الربيعية الأخرى التي يتركها سنفكين وراءه، عندما يذهب إلى الجنوب كلّ سنة في أكتوبر.

استُهِلّت الرسالة بكلمة "سلامات" بخطّ يده الكبيرة المستديرة. والرسالة بحدّ ذاتها كانت قصيرة:

سلامات

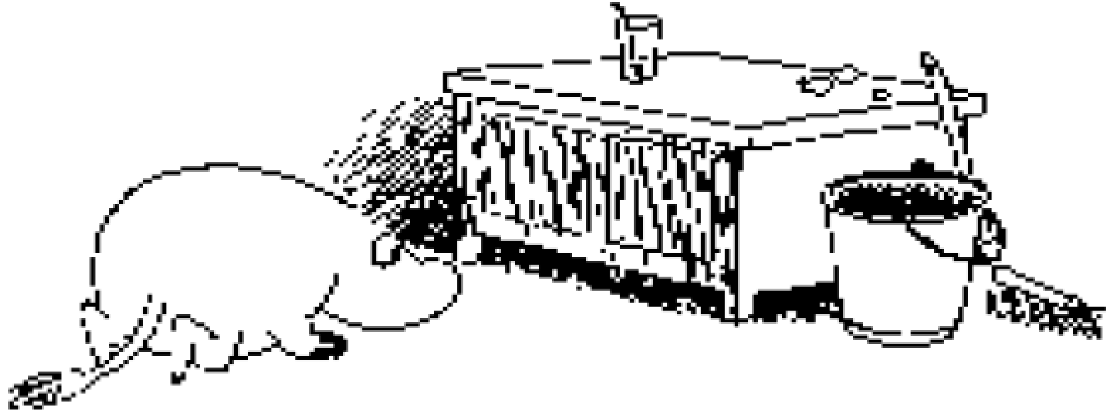
ناموا جيدًا وشدّوا حيلكم. سأكون بينكم مجددًا مع قدوم أول يوم ربيعي دافئ. لا تباشروا بناء السدّ بدوني.

سنفكين

قرأ مومين ترول الرسالة عدّة مرات، وفجأة شعر بالجوع.

ذهب إلى المطبخ الذي كان أيضًا تحت الأرض بأميال وأميال، إذا جاز التعبير، وبدا فارغًا ومرتّبًا على نحو محبِط. كان مخزن المؤونة فارغًا مثله. لم يجد مومين ترول شيئًا هناك، ما عدا قنينة شراب





توت متخثر، ونصف رزمة بسكويت متترّب.

أعدّ مومين ترول لنفسه قعدة مريحة تحت طاولة المطبخ وبدأ يمضغ. قرأ رسالة سنفكين مرّة أخرى.

بعد ذلك استلقى على ظهره، وانبرى يتأمل مجموعات المربعات الخشبية تحت زوايا الطاولة. كان المطبخ ساكنًا.

"سلامات،" همس مومين ترول. "ناموا جيدًا وشدّوا حيلكم. في مطلع أول يوم ربيعي دافئ،" هتف رافعًا من صوته قليلاً. ثم أنشد بأعلى صوته: "ستجدونني بينكم ثانية! ستجدونني بينكم، والربيع في الأجواء، وهو دافئ ومعتدل، وسنكون هنا، وها نحن ذا، وهنا وهناك في أيّ سنة..."

توقّف فورًا عندما ضبط عينين صغيرتين لامعتين تسمرّتا عليه، وراقبتاه من تحت المغسلة.

بادل العينين التحديق، وعاد الصمت يُطبق على المطبخ، ثم اختفت العينان.

"انتظِر،" صاح مومين ترول مناشِدًا بقلق. زحف نحو المغسلة وهو يواصل النداء بلطف: "اخرج، ألا تفعل؟ لا تخف! أنا طيب. عُد..."

لكن أيّا كان ذاك الذي يعيش تحت المغسلة فإنه لم يعد. ذرَّ مومين ترول على الأرض خطًا من فُتات البسكويت، وصبّ شيئًا من شراب التوت مشكّلاً بركة صغيرة.

عندما رجع إلى الصالة حيّته بلورات الثريا بطنطنة كئيبة.

''فاض بي الكيل،" قال مومين ترول مخاطبًا الثريا بصرامة. "سئمت منكم كلّكم، وسأذهب إلى الجنوب لمقابلة سنفكين." مضى إلى الباب الأمامي وحاول فتحه، إلا أنه كان متجمّدًا.

جرى وهو ينشج من نافذة إلى نافذة، وجرّب فتحها كلّها، لكنها جميعها التصقت بمكانها بشدّة أيضًا. وهكذا أسرع مومين ترول الوحيد إلى العلية، ونجح في رفع غطاء تهوية المدخنة، وتسلق خارجًا إلى السطح.



استقبلته موجة من الهواء البارد.

فقدَ أنفاسه، وانزلق متدحرجًا من على الحافة.

وبذلك أُلقِي مومين ترول خارجًا بلا حول ولا قوة، في عالم غريب وخطر. وأُقحِم حتى أذنيه في تجربته الأولى مع أكوام الثلج. كان ملمس الثلج على جلده المُخملي خشنًا ومستهجنًا، ولكن أنفه التقط في الوقت نفسه رائحة جديدة. رائحة أكثر خطورة من أيّ رائحة أخرى عرفها سابقًا، ومفزعة قليلاً. إلا أنّها جعلته يقِظًا وأثارت فيه فضولاً جمًا.

كان الوادي مجللاً بغسق رمادي، ولم يعد أخضر كعهده السابق، بل أبيض. وكلّ ما كان من قبل يتحرّك أصبح ثابتًا. وكل ما له زوايا غدا مستديرًا. ولم يكن

هناك أيّ أصوات حيّة.

"هذا ثلج،" همس مومين ترول لنفسه. "سمعتُ عنه من أمي، واسمه الثلج."

في تلك اللحظة وبدون أن يعرف مومين ترول أيّ شيء عن الأمر، قرّر جلده المُخملي أن يتحوّل إلى صوفي. قرّر أن يصبح، شيئًا فشيئًا، معطف فراء يصلح للاستعمال الشتوي. وهو أمر يتطلّب بعض الوقت بالطبع، ولكن القرار اتّخِذ في أدنى الأحوال، وهذا بحدّ ذاته شيء جيد.

في هذه الأثناء راح مومين ترول يتقدّم بثقل خائضًا الثلج. مضى نزولاً إلى النهر. ذاك النهر الذي لطالما اندفع مرحًا وشفافًا عبر حديقة آل مومين، بدا الآن على خلاف ما هو عليه؛ كالحًا وفاتر الهمّة، لأنه هو أيضًا انتمى إلى هذا العالم الجديد الذي لم يشعر مومين ترول أنه يمتّ إليه بصلة.

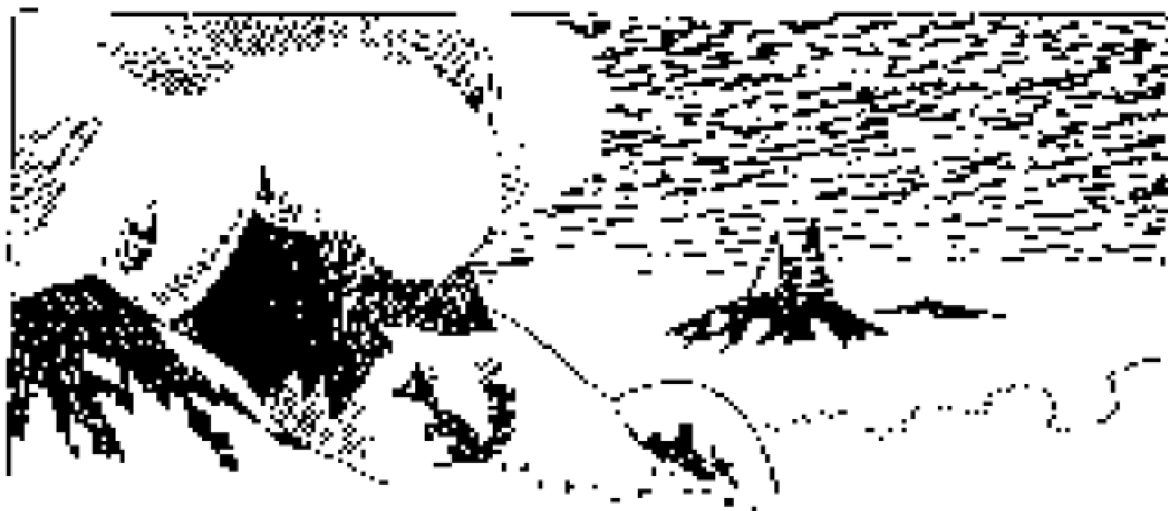
نظر إلى الجسر ليشعر بشيء من الأمان، ونظر إلى صندوق البريد، وجدهما متطابقين مع ما في ذاكرته. رفع غطاء الصندوق، لكنه لم يجد فيه أي بريد سوى ورقة شجر ذابلة بدون أيّ كلمة عليها.

كان قد بدأ يعتاد رائحة الشتاء، ولذلك توقّفت عن إثارة فضوله.

رنا إلى أجمة الياسمين التي تشابكت أغصانها العارية بفوضوية وفكّر: "إنها ميتة. مات العالم كله بينما أنا نائم. هذا العالم ينتمي إلى مخلوقات أخرى لا أعرفها. إلى الغروك ربّما، لكنه لم يُخلق من أجل المومين."

تلكأ للحظة. ثم استقرّ به الرأي على أن شعوره بالاستياء سيتفاقم إذا اكتشف أنه الصاحي الوحيد بين النائمين.

وكان هذا هو السبب الذي من أجله طبع مومين ترول أول آثار أقدام على الثلج، صعودًا إلى الجسر وعلى المنحدر. كانت آثارًا صغيرة جدًا، لكن حازمة ومتّجهة مباشرة بين الأشجار صوب الجنوب.



الفصل الثاني
بيت الاستحمام المسحور

عند المنحدر ناحية البحر، بعيدًا تجاه الغرب، راح سنجاب صغير يطفر على غير هدى فوق الثلج. كان سنجابًا صغيرًا أحمق، أحبّ دائمًا أن يعتبر نفسه أنه السنجاب ذو الذيل الرائع.

في واقع الأمر، هو لم يجهد نفسه مطلقًا بالتفكير في أي شيء منذ زمن طويل. وغالبًا ما اعتمد على ما يتولّد لديه من أحاسيس بخصوص الأشياء. وكان إحساسه الأخير أن فراشه في وكره قد بدأ يصبح قاسيًا. ولذلك خرج بحثًا عن فراش جديد.

وبين حين وآخر غمغم لنفسه: "فراش،" لئلا ينسى عمّا كان يبحث. فهو لطالما نسي الأشياء بسهولة كبيرة.

مضى السنجاب يطفر على هذا الدرب وذاك، بين الأشجار وخارجًا على الثلج. دسّ أنفه في الثلج وتفكّر مليًا، نظر عاليًا إلى السماء وهزّ رأسه، ثم طفر قدمًا من جديد.

وصل إلى الكهف على التلّ وقفز إلى الداخل. ولكن ما إن أصبح هناك حتى فقد قدرته على الاستمرار في التركيز. وهكذا نسي كلّ ما يتعلّق بفراشه. بدلاً

من ذلك قبع على ذيله وفكّر أنه يمكن الناس أن يدعوه أيضًا "السنجاب ذو الفراء الرائع."

خلف كومة الثلج الهائلة عند فتحة الكهف كان أحد ما قد نشر القشّ على الأرض. ووسط القشّ قام صندوق كرتون كبير، غطاؤه مفتوح جزئيًا.

"عجبًا،" هتف السنجاب بصوت عالٍ وبشيء من الدهشة. "هذا الصندوق الكرتوني لم يكن هنا من قبل. لا بدّ أن هناك شيئًا مريبًا يتعلّق به. أو أن هذا ليس بالكهف المعهود، أو ربما لستُ السنجاب نفسه، لكنني لا أحبّذ هذه الفكرة."

نخس إحدى زوايا الغطاء، وحشر رأسه في الصندوق.

كان دافئًا، وبدا أن فيه شيئًا ناعمًا وطريًا. فجأة تذكّر السنجاب فراشه. فأعملت أسنانه الصغيرة الحادّة تقطيعًا في الحشوة الطرية، وسحب جزّة من الصوف.

سحب جزّة تلو جزّة؛ وسرعان ما امتلأت ذراعاه بالصوف، فراح يعمل بجدّ بقوائمه الأربع، وهو يشعر بسرور وسعادة بالغين.

فجأة، أحسّ بأحد ما يحاول عضّه في ساقه، فاندفع مثل وميض



البرق مبتعدًا عن الصندوق، ثم تردّد للحظة، وقرّر أن يغلّب فضوله على خوفه.

وفي تلك اللحظة، ظهر رأس غاضب أشعث الشعر من الفتحة التي قضمها في الصوف.

“ماذا! هل انتهيت يا هذا؟!” قالت ماي الصغيرة.

“لستُ متأكّدا،” أجاب السنجاب.

“ها قد أيقظتني الآن،” تابعت ماي الصغيرة بجفاء. “ وأكلت نصف كيس نومي. ما فكرتكَ العظيمة من هذا؟”

لكن السنجاب كان خائفًا جدًا إلى درجة أنه نسي أمر فراشه ثانية.

نخرت ماي الصغيرة وتسلّقت خارج الصندوق الكرتوني، وأغلقت الغطاء على أختها التي ما زالت نائمة، ومضت وتحسّست الثلج بكفّها.

"هذا ما هو عليه إذًا،" قالت. "يا للأفكار السخيفة التي تراود الناس." ثم جمعتْ كرة ثلج وأصابت السنجاب في رأسه من



رميتها الأولى. وبعدئذٍ، خطت ماي الصغيرة خارج الكهف لتسبر أغوار الشتاء.

كان أول إنجاز لها في هذا المضمار، أن أزلّ المنحدر الجليدي قدمها، فحطّت على قفاها بعنف.

"هكذا إذًا،" قالت ماي الصغيرة بصوت متوعّد. "يحسبون أنهم سيفلتون من أي شيء بدون عقاب."

ثمّ حدث أن تساءلت كيف ستبدو عليه الماي وساقاها في الهواء، وأضحكها هذا لفترة لا بأس بها. تفحّصت المنحدر وسفح التل وفكّرت قليلاً، ثم قالت:

“حسنًا الآن،” وقامت بقفزة منزلقة متعرّجة بعيدة المدى على الجليد الأملس.

كرّرت هذا ستّ مرّات أخرى، ولاحظت أن ذلك جعل البرد يسري في ظهرها.

عادت ماي الصغيرة إلى الكهف وقلبت الصندوق بأختها رأسًا على عقب مخرجة إياها منه. ومع أنّها لم يسبق لها أن شاهدت أي زلاجة، تولّد لديها شعور مؤكّد أن هناك عدّة طرق ممكنة لاستعمال صندوق كرتوني.

أما بالنسبة إلى السنجاب، فقد عاد إلى الغابة، ووقف هناك ينقّل نظره حائرًا من شجرة إلى شجرة.

لم يستطع ولا حتى من أجل ذيله أن يتذكّر في أي واحدة يعيش، أو ما الذي خرج يبحث عنه.

عندما بدأ الظلام يزحف بين الأشجار، لم يكن مومين ترول قد أحرز كثيرًا من التقدّم جنوبًا.

مع كلّ خطوة خطاها غاصت قدماه عميقًا في الثلج، وما عاد الثلج في أي حال مثيرًا كالسابق.

كان الصمت والسكون في الغابة شاملين. إلا أنه بين حين وآخر سقطت كتلة ثلج كبيرة من على شجرة، وكان الغصن الذي تسقط منه يهتزّ بعد ذلك لفترة قصيرة، ثم يعود كلّ شيء بلا حياة ثانية.

“العالم نائم،” فكّر مومين ترول.“أنا وحدي المستيقظ والمؤرّق. أنا وحدي مَن عليه أن يتجوّل ويتجوّل، يومًا بعد يوم، وأسبوعًا تلو أسبوع، إلى أن أصبح

أنا أيضًا كومة ثلج لن يعرف عنها أحد أي شيء.”

في تلك اللحظة تمامًا فُرِجت الغابة، وانبسط أمامه واد آخر. لمح على أحد جانبيه الجبال المهجورة.جبال تدحرجت نحو الجنوب على شكل موجة إثر موجة، ولم تبد قطّ أكثر عزلة مما بدت عليه.

حينئذ فقط بدأ البرد يلسع مومين ترول. وأقبل ظلام المساء يزحف خارجًا من الشقوق، وأخذ يتسلّق الحافات المتجمّدة بتؤدة. كان الثلج في الأعلى يلمع مثل أنياب مكشوفة على الجبل الأسود؛ أبيض وأسود، والوحشة في كلّ مكان.

“سنفكين في بقعة ما على الطرف الآخر منه،” قال مومين ترول لنفسه. “وهو جالس في مكان ما تحت الشمس، يقشّر برتقالة. لو أعرف فقط أنه على علم بأنني أتسلّق هذه الجبال من أجله، لتمكّنت من تحقيق هذا. ولكنني لن أنجح ما دمتُ وحدي.”

وهكذا استدار مومين ترول وعاد يشقّ طريقه ببطء

متتبعًا آثاره.

“سأشغّل جميع الساعات،” فكّر.“لعل هذا يجعل الربيع يبكر قليلاً في قدومه. وقد يستيقظ أحد إذا حدث وكسرتُ شيئًا كبيرًا.”

لكنّه عرف في قلبه أن أحدًا لن يستيقظ.

ثمّ حدث شيء. كانت هناك آثار أقدام صغيرة مختلطة بآثار أقدام مومين ترول. توقّف وأخذ يتفحّصها لوقت طويل. من المؤكّد أن شيئًا حيًا قد مرّ في الغابة، ربما ليس قبل نصف ساعة. ولا يمكن أن يكون قد ابتعد. لقد مضى صوب الوادي ولا بدّ أنه أصغر منه حجمًا. فأقدامه كادت لا تترك أثرًا على الثلج.

أحسّ مومين ترول بالسخونة تكتنفه كلّه؛ من طرف ذيله إلى أذنيه.

"انتظِر،" نادى. "لا تتركني وحدي!" نشج قليلاً بينما مضى يتعثر قدمًا وسط الثلج، وفجأة اجتاحه ذعر هائل من الظلام والوحدة. ولا ريب أن ذعره هذا كان قد وارى نفسه في مكان ما في داخله، منذ أن صحا في البيت النائم. لكنها كانت المرّة الأولى التي تجاسر فيها وسمح لنفسه أن يشعر به حقًا.

كفّ الآن عن النداء. لأنه فكّر أنه سيكون مفجعًا ألا يجيبه أحد. لم يجرؤ حتّى على رفع أنفه بعيدًا عن الآثار التي لا تكاد تكون مرئية في العتمة. وواصل الزحف والتخبّط قدمًا، ونشج بصمت بينه وبين نفسه.

ثم لمح بصيص ضوء.

كان بصيصًا خافتًا جدًا، ومع ذلك ملأ الغابة بوهج أحمر لطيف.

هدأ مومين ترول. نسي أمر آثار الأقدام وتابع تقدّمه ببطء وهو ينظر إلى الضوء، واكتشف في النهاية أنه مجرد شمعة عادية، أُقحِمت بالثلج وثُبتت عموديًا، وحولها انتصب قمع سكّر صغير كأنه البيت، صُنع من كُريات الثلج،

وبدا شفافًا ومائلاً قليلاً إلى اللون البرتقالي الفاتح، مثل ظلال قنديل الزيت في البيت.

في الجهة الأخرى من ذلك الفانوس، كانت ثمّة حفرة مريحة حفرها أحد ما، وفيها استلقى شخص يتأمّل سماء الشتاء الرائقة، ويصفّر لحنًا عذبًا لنفسه.

"أي أغنية هذه؟" سأل مومين ترول.

"أغنيتي،" أجاب صوت من الحفرة. "أغنية تو-تيكي، التي



شيّدت فانوس ثلج، لكن لازمة الأغنية تتعلّق بمجموعة من الأشياء الأخرى."

"فهمت،" قال "مومين ترول" وهو يجلس على الثلج.

"لا، لم تفهم،" أجابت تو-تيكي بلطف، وارتفعت بما يكفي لأن تظهر بلوزتها الحمراء والبيضاء. "لأن اللازمة تحكي عن الأشياء التي لا يستطيع المرء

فهمها. إنني أفكّر في الشفق القطبي الشمالي. ولا شيء يمكن أن يؤكّد لك أهو موجود حقًا أم أنه يبدو كأنه موجود. إن جميع الأشياء هي في الواقع غير مؤكّدة، وهذا بالضبط ما يجعلني أشعر بالاطمئنان."

عادت واضطجعت في الثلج وواصلت تأمّل السماء التي كانت قد غدت سوداء تمامًا في ذلك الحين.

رفع مومين ترول أنفه أيضًا، ونظر إلى أضواء الشمال البرّاقة، التي لا ريب أنه لا هو ولا أي فرد من آل مومين قد رآها من قبل قطّ. كانت بيضاء وزرقاء وفيها لمسة مائلة للاخضرار، وكانت تغلّف السماء بستائر طويلة مرفرفة.

"أعتقد أنه موجود،" قال أخيرًا.

لم تجب تو-تيكي. زحفت خارج حفرتها إلى فانوس الثلج وحملت شمعتها.

"سنأخذ هذه إلى البيت،" قالت. "قبل أن تأتي الغروك وتجلس عليها."

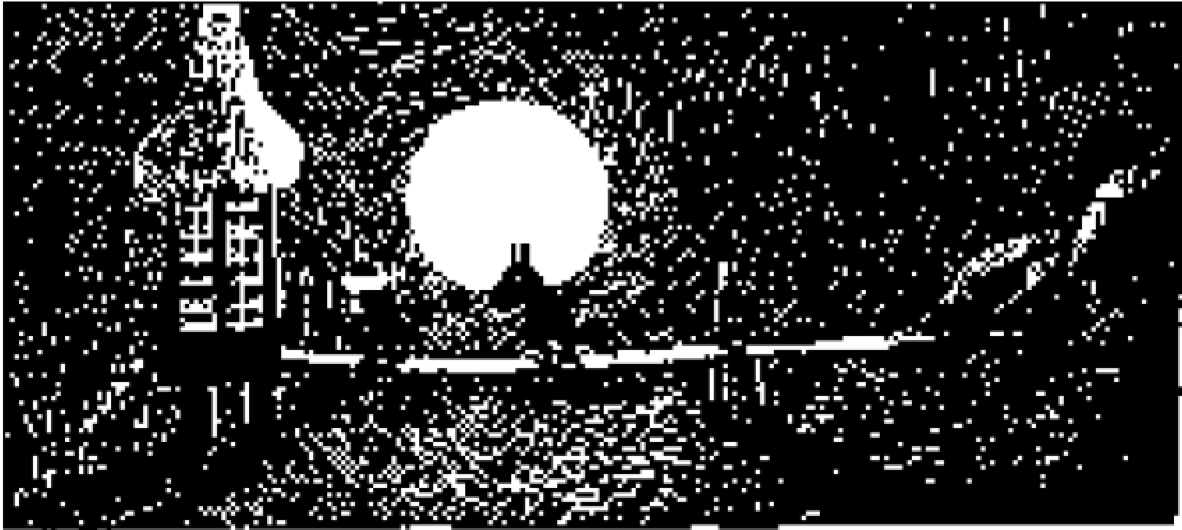
هزّ مومين ترول رأسه بتفهّم. فقد سبق له أن شاهد الغروك مرّة، في إحدى ليالي أغسطس منذ وقت بعيد. باردة ورمادية. ومثل كتلة ثلج جلست القرفصاء في ظلّ أجمات الليلك واكتفت بالنظر إليه. ويا لها من نظرة! وعندما انسلّت مبتعدة، كانت الأرض تحتها حيث جلست بيضاء متجمّدة.

للحظة تساءل مومين ترول ما إذا لم يكن الشتاء نفسه شيئًا صنعته جماعات الغروك بالقرفصة على الأرض. لكنه قرّر تأجيل مناقشة هذه المسألة لوقت لاحق، عندما يوثّق معرفته بـ "تو-تيكي.

فيما تلمّسا طريق العودة بدا الوادي منورًا أكثر، ورأى مومين ترول أن القمر قد بزغ.

كان بيت آل مومين ينتصب هاجعًا وحده على الطرف الآخر من الجسر. ومن هناك انعطفت تو-تيكي نحو الغرب، وسلكت طريقًا مختصرًا خلال البستان العارية أشجاره.

“كان هنا تفاح كثير في الخريف الماضي،” علّق مومين ترول بطريقة ودّية.



“لكن الآن لدينا الكثير من الثلج،” أجابت تو-تيكي بصوت ساهم بدون أن تتوقّف.

وصلا أخيرًا إلى الشاطئ. كان البحر عبارة عن ظلمة شاسعة مترامية الأطراف. مشيا بحذر على المنصّة الضيّقة المؤدية إلى بيت استحمام آل مومين.

“كنت أغطس من هنا،” همس مومين ترول بصوت رقيق جدًا، ونظر إلى القصب المُصفر المتكسّر المنبثق من الثلج. “كان البحر دافئًا جدًا، وكنت أقوم بتسع جولات تحت الماء.”

فتحت تو-تيكي باب بيت الاستحمام. ودخلت أولاً، ووضعت الشمعة على طاولة مستديرة وجدها بابا مومين عائمة في البحر، منذ زمن بعيد.

كان كلّ شيء كعهده تمامًا في بيت الاستحمام ذي الأضلاع الثماني: الفتحات في الحيطان الخشبية المُصفرة، ألواح زجاج النوافذ الصغيرة الخضراء والحمراء، المقاعد الضيّقة، والخزانة التي تحتوي أثواب الاستحمام، ودُمية مطاطية على شكل هيمولين كانت تسرّب نذرًا يسيرًا من الهواء.

كان كلّ شيء كحاله في الصيف. ومع ذلك تغيّرت الغرفة بطريقة غامضة.

خلعت تو-تيكي قبّعتها، فتسلّقت القبّعة الجدار مباشرة وعلّقت نفسها على وتد.

“أودّ الحصول على قبّعة مثلها،” هتف مومين ترول.

“لستَ في حاجة إلى أي قبّعة،” قالت تو-تيكي، “يمكنك دائمًا أن تهزّ أذنيك وتبقى دافئًا بهذه الطريقة. ولكنني أظنّ أن قدميك باردتان.”

حينها أقبل جوربان صوفيان يتهاديان على الأرض، واستقرّا أمام قدمي مومين ترول.

في الوقت نفسه أُضرِمَت نار في الموقد الحديدي ذي الأرجل الثلاث في الزاوية القاصية، وبدأ أحد ما يعزف الناي بوقار تحت الطاولة.

"إنه خجول،" أوضحت تو-تيكي. "ولهذا يعزف تحت الطاولة."

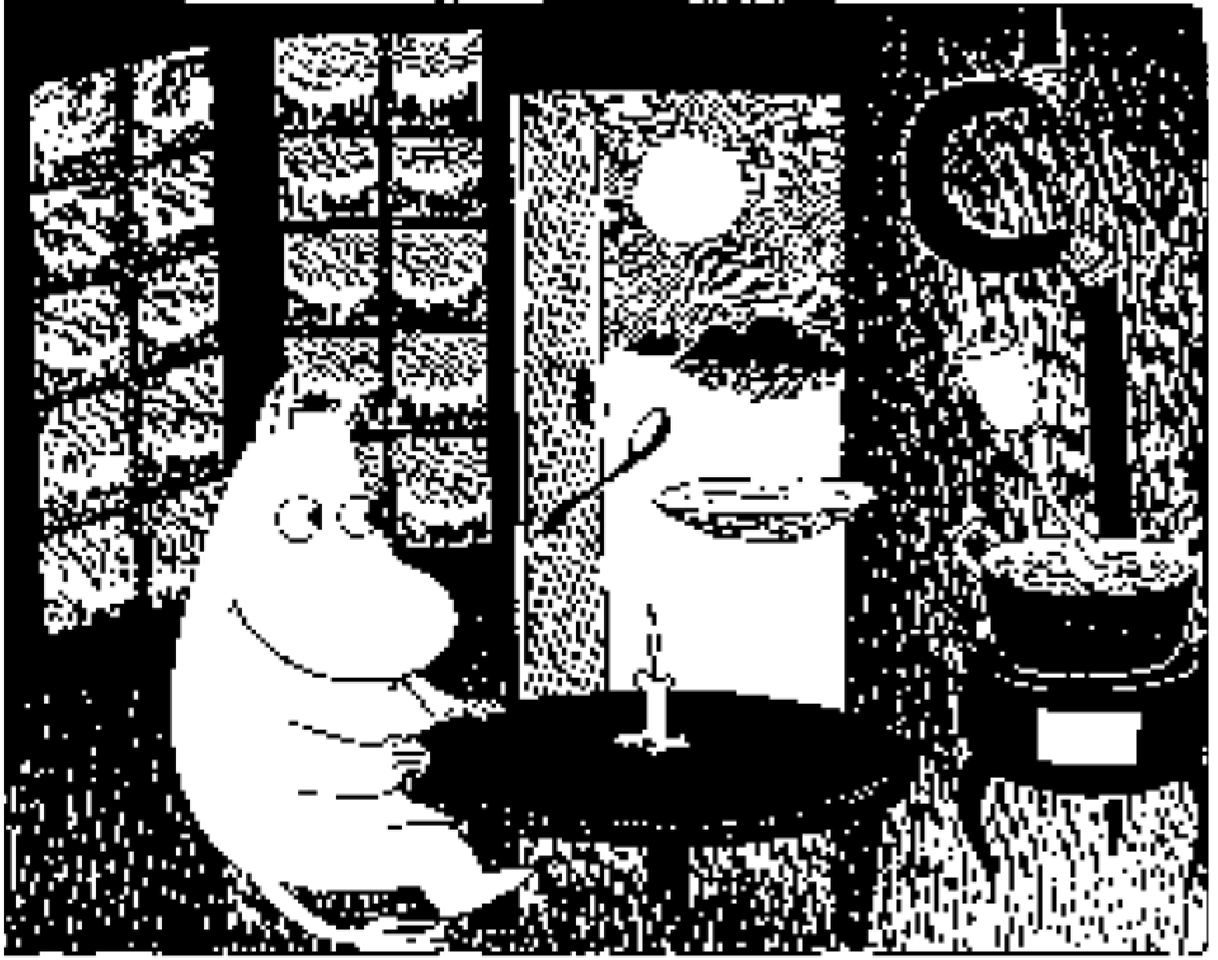
"لكن لماذا لا يُظهر نفسه؟" سألها مومين ترول.

"كلّهم خجولون إلى درجة أنهم أصبحوا غير مرئيين،" أجابت تو-تيكي. "إنهم ثمانية سنافر صغار يشاركونني هذا البيت."

"هذا بيت استحمام بابا،" قال مومين ترول.

حدجته تو-تيكي بنظرة جدّية، وقالت: "قد تكون مصيبًا، وقد تكون مخطئًا. في الصيف هو لبابا، وفي الشتاء هو لتو-تيكي."

بدأت قِدر تغلي على الموقد، فرُفع غطاؤها، وحرّكت ملعقة



الحساء. وضعت ملعقة أخرى ذرّة ملح فيه، ثم عادت بمنتهى الترتيب إلى حافّة النافذة.

في الخارج، ازدادت حدّة البرد مع تقدّم الليل، وعكس القمر نوره على كلّ ألواح الزجاج الخضراء والحمراء.

"حدّثيني عن الثلج!" قال مومين ترول وهو يجلس على كرسي حديقة بابا مومين الخشبي، الذي قصرت الشمس لونه. "أنا لا أفهمه."

“ولا أنا،” أجابت تو-تيكي. “تعتقد أنّه بارد، لكن إذا بنيتَ لنفسك بيت ثلج فهو دافئ. تعتقد أنه أبيض، ولكن أحيانًا يبدو ورديًا، وأحيانًا أخرى أزرق. يمكن أن يكون أنعم من أيّ شيء، ولكن أيضًا أقسى من حجر. لا شيء مؤكّد.”

أقبل صحن حساء ينزلق في الهواء بحذر، وحطّ على الطاولة أمام مومين ترول.

“أين تعلّم سنافرك الطيران؟” سألها.

“حسنًا،” بدأت تو-تيكي. “يُستحسن ألا تسأل الناس عن كلّ شيء. فهم قد يفضّلون الاحتفاظ بأسرارهم لأنفسهم. لا تشغل فكرك بالسنافر، ولا بالثلج.”

انكبّ مومين ترول على الحساء يتناوله.

نظر إلى الخزانة في الزاوية وفكّر كم أنه من اللطيف أن يعرف أن رداء استحمامه القديم معلّق فيها، وأن هناك شيئًا مؤكّدًا ومريحًا ما زال باقيًا في خضم الأشياء الجديدة والمُقلقة. كان يعرف أن رداء استحمامه أزرق، وأن علاقته مفقودة، وأن هناك حتمًا نظارة شمسية في جيبه الأيسر.

بعد فترة قال: “هناك نحتفظ بأردية الاستحمام عادة. رداء ماما أبعد واحد عن باب الخزانة.”

مدّت تو-تيكي يدها وأمسكت شطيرة. “شكرًا،” قالت للسنفور، ثم أردفت تخاطب مومين ترول: “يجب ألا تفتح الخزانة مطلقًا. عِدني بذلك.”

“لن أعِد بأي شيء،” ردّ مومين ترول بفظاظة وهو مُطرق ينظر إلى وعاء الحساء.

فجأة سيطر عليه شعور بأن أهمّ شيء في العالم هو فتح باب تلك الخزانة، ليرى بأمّ عينه أن رداء الاستحمام ما زال هناك.

كانت النار تشتعل بطريقة رائعة، وتهدر في أنبوب الموقد. وكان بيت الاستحمام دافئًا وحميمًا. ومن تحت الطاولة رفعت الناي لحنها المتوحّد.

قامت أيدٍ خفية بحمل الصحون الفارغة بعيدًا. وذابت الشمعة كلّها، وغرق فتيلها في بحيرة من الشّحم. وما عاد ثمّة ضوء إلا الضوء المنبعث من عين الموقد الحمراء، ومن أشعة القمر على الأرض، تلك التي تسلّلت عبر الأشكال الزجاجية المربّعة بألوانها الحمراء والخضراء.

“سأنام في البيت اللّيلة،” أعلن مومين ترول بجفاء.

“لا بأس،” أجابت تو-تيكي. لم يغِب القمر بعد، وستجد طريقك بسهولة.”

فُتح الباب من تلقاء نفسه، وخطا مومين ترول إلى الخارج فوق ألواح المنصّة الخشبية المكسوة بالثلج.

“لا يهم،” قال. “ففي جميع الأحوال رداء استحمامي في تلك الخزانة. شكرًا على الحساء.”

انزلق الباب وراءه وأُغلق من تلقاء نفسه، وحوله في شتّى الاتجاهات لم يجد مومين ترول سوى السكون وضوء القمر.

ألقى نظرة سريعة على الثلج، وتراءى له أنه لمح الغروك الضخمة الخرقاء تجرجر نفسها على الطريق قريبًا من الأفق.

تخيّلها تنتظر خلف الصخور عند الشاطئ. وأن ظلّها يزحف بهدوء متواريًا خلف كلّ جذع شجرة مرّ بها بينما مضى يقطع الغابة؛ ظِلّ الغروك التي تجلس فوق كلّ ضوء، وتقصر كلّ لون.

أخيرًا، وصل مومين ترول إلى بيته النائم. تسلّق بحذر كتلة الثلج الهائلة من الجهة الشمالية وزحف صاعدًا إلى الفتحة في السطح.

كان الهواء في الداخل دافئًا وفوّاحًا برائحة آل مومين. ولما وطئ أرض الصالة جلجلت الثريا مرحّبة به. حمل مومين ترول فراشه من سريره ووضعه على حصيرة سرير ماما مومين. أطلقت ماما مومين تنهيدة قصيرة في نومها، وغمغمت بشيء لم يستطع فهمه. ثم ضحكت لنفسها وتدحرجت قليلاً مقتربة من الحائط.

“ما عدتُ أنتمي إلى هنا،” فكّر مومين ترول. “ولا إلى هناك. ولا أعرف هل هو يقظة أو هو حلم.” ثم، وفي غضون ثوانٍ نام، وغمره ليلك الصيف بظلاله الخضراء الودودة.

كمنت ماي الصغيرة في كيس نومها الممزّق والغيظ ينهشها. كانت الريح قد هبّت في المساء وعصفت في قلب الكهف مباشرة. أما الصندوق الكرتوني فكانت أجزاؤه متناثرة في ثلاث جهات مختلفة، وراحت معظم حشوته تتطاير باضطراب من زاوية إلى أخرى في الكهف.

“مرحبًا يا أختي الكبرى،” صاحت ماي الصغيرة، وخبطت ظهر بنت المايْبل. لكن بنت المايْبل بقيت نائمة، حتّى إنها لم تتحرّك.

‘‘غضبي يزداد،” قالت ماي الصغيرة. “أهكذا تجري الأمور،

والمرء لمرّة واحدة في حياته يحتاج إلى أخت.”

ثم رفست كيس نومها متحرّرة منه. وتسلّلت إلى فتحة الكهف



ونظرت خارجًا متأمّلة الليل البارد وشيء من الحبور يعتريها.

“سأريكم جميعًا،” تمتمت ماي الصغيرة بوجه متجهّم ونزلت المنحدر.

كان الشاطئ أكثر عزلة من نهاية العالم (هذا إذا كان أحد قد ذهب إلى هناك بالفعل). وكان الثلج يطلق همهمة هامسة بينما انبرى يدوّر مراوحه الكبيرة فوق الجليد. وكلّ شيء غارق في الظلام بعد أن أفل القمر.

“ها نحن نبدأ،” هتفت ماي الصغيرة ونشرت حواشي ثوبَها في وجه ريح الشمال العاتية. ثم بدأت تنْزلق إلى الأمام بين بقع الثلج، وتنحرف يسارًا

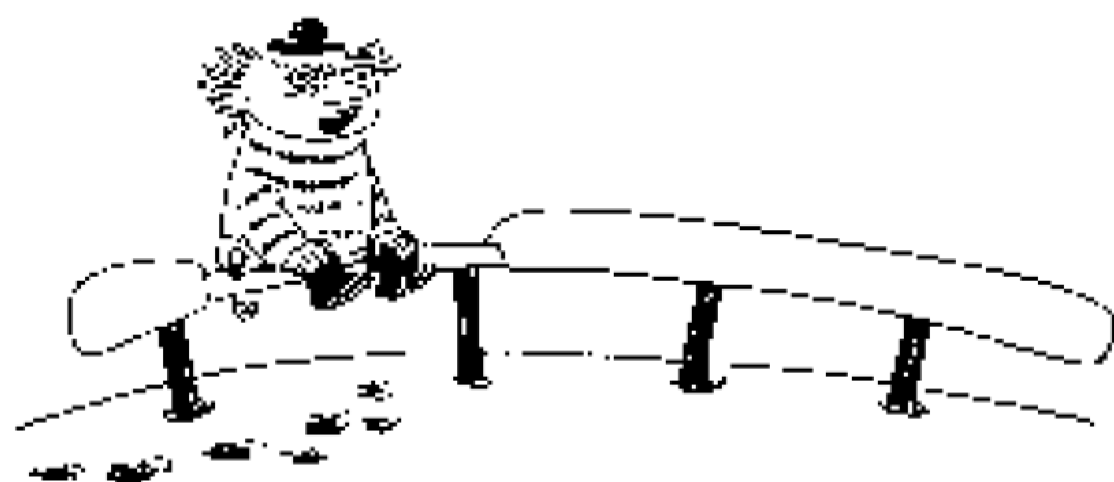
ويمينًا، مباعِدة ساقيها، بقدر ما يقتضيه التوازن الجيّد الذي يكون لديك عادة إذا كنت من جماعة الماي.

عندما مرّت ماي الصغيرة بجوار بيت الاستحمام، كان قد مضى وقت طويل منذ أن ذوت الشمعة فيه. فلم تستطع أن تستشف سوى سقف البيت المدبب البارز تحت سماء الليل. ومع ذلك لم يستغرقها الأمر ولا لحظة تفكير قبل أن تقول: "هذا هو بيت استحمامنا القديم." تشمّمت روائح الشتاء الحادّة الخطرة، وتوقّفت عند الشاطئ لتستمع. كانت الذئاب تعوي بعيدًا، بعيدًا في الجبال المهجورة.

"إنها تجعل الدمّ يتجمّد،" غمغمت ماي الصغيرة، مكشّرة في الظلام. ثم أخبرها أنفها أن ثمّة دربًا هناك يقود إلى وادي المومين، وإلى البيت الذي يمكن أن يجد فيه المرء بعض الأغطية السميكة، وربما كيس نوم جديد. اندفعت على طول الشاطئ، ثم بين الأشجار مباشرة.

كانت صغيرة الحجم جدًا بحيث أن قدميها لم تتركا أي أثر على الثلج.





الفصل الثالث
حصان الثلج وسيدة الصقيع العظيم

عادت الساعات كلّها تعمل من جديد. وشعر مومين ترول بوحشة أقلّ بعد أن شغّلها. وبما أن الزمن كان مفقودًا في جميع الأحوال، جعل أوقاتها مختلفة، مرتئيًا أنه لا بدّ أن تكون إحداها صحيحة.

دقّت تلك الساعات من وقت لآخر، وأحيانًا رنّ المنبه. وقد أثلج هذا صدره، لكن أمرًا واحدًا فظيعًا أرّقه، وهو أن الشمس ما عادت تشرق مطلقًا. نعم، هذا صحيح؛ إذ طلع الصباح إثر الصباح مغلّفا بمسحة من الغسق الرمادي، ثم عاد وتلاشى في ليل الشتاء الطويل. أما الشمس فلم تظهِر نفسها. كانت مفقودة، مفقودة حقًّا؛ ولعلها طُويت في آفاق الفضاء. في البداية، رفض مومين ترول أن يصدق هذا. وداوم على الانتظار مدة طويلة.

نزل يوميًا إلى الشاطئ وجلس هناك يترقّب، وأنفه تجاه المنطقة الجنوبية الشرقية. لكن شيئًا لم يحدث. كان يعود بعدئذ إلى البيت، ويغلق الفتحة التي في السقف ويضيء مجموعة من الشموع على رفّ موقد الصالة.

لم يخرج الساكن تحت المغسلة ليأكل أبدًا، ولا ريب أنه كان يعيش حياة سرّية ومهمّة وحده.

وما فتئت الغروك تتسكّع على الجليد، مستغرقة في أفكارها، كيف أن أحدًا لن يتعلّم درسه أبدًا. وفي خزانة بيت الاستحمام كان ثمّة شيء خطر يترصّد بين

أردية الاستحمام. فما الذي يمكن المرء أن يفعله حيال أشياء كهذه؟

نعم، إن تلك الأشياء إنما هي على ما هي عليه. ولا يستطيع المرء أبدًا أن يعرف لماذا، أضِف إلى ذلك أنّها تجعله يشعر بعزلة محبِطة.

وجد مومين ترول في العلية صندوقًا كبيرًا من نماذج استنساخ الصور. فارتدّ إلى حالة من الإعجاب الشغوف بجمالها ذي اللمسات الصيفية. كانت صور أزهار وشروق الشمس وعربات صغيرة بعجلات مبهرجة، صور لامعة ورائقة ذكّرته بالعالم الذي فقده.

في البداية نشر الصور على أرض الصالة. ثم وطد العزم على لصقها على الحيطان. ألصقها ببطء وبعناية ليطيل فترة انشغاله. وفوق أمّه النائمة ألصق أجملها.

كان مومين ترول قد ألصق الصور على طول المسافة إلى المرآة قبل أن يلاحظ غياب الصينية الفضية. الصينية التي لطالما عُلّقت على يمين المرآة داخل كيس للصواني، أحمر وذي غرز متشابكة. والآن لم يجد هناك سوى الكيس وظلّ داكن بيضاوي الشكل على ورق الجدران.

تملّكه انزعاج بالغ لأنه يعلم أن ماما مومين تحبّ تلك الصينية. كانت كنْزًا عائليًا لم يُسمح لأحد باستعماله، ولطالما كانت الشيء الوحيد الذي يُلمّع احتفاءً بمنتصف الصيف.

بحث مومين ترول في كلّ مكان حائرًا. لم يجد أي صينية. بيد أنه اكتشف أن عدّة أشياء أخرى كانت مفقودة أيضًا، وسائد وأغطية وطحين وسكّر وإبريق

شاي، بل حتّى بيت البيضة بوردته المطرّزة.

شعر مومين ترول بالمهانة، لأنه اعتبر نفسه المسؤول عن البيت نيابة عن العائلة النائمة. في بادئ الأمر شكّ بالساكن تحت المغسلة. شكّ أيضًا بـ الغروك وبالشيء الغامض في خزانة بيت الاستحمام. لكن المذنب قد يكون في الحقيقة أي شخص. فالشتاء على ما يبدو يعجّ بمخلوقات غريبة ذات تصرّفات غامضة مريبة.

"يجدر بي أن أسأل تو-تيكي،" فكّر مومين ترول. "صحيح أنني نويت معاقبة الشمس بالبقاء في البيت إلى أن تعود. لكن هذا مهمّ."

عندما خرج مومين ترول إلى الغسق الرمادي وجد حصانًا أبيض غريبًا في الشرفة، وقد وقف يحدّق فيه بعينين وامضتين. اقترب منه بحذر وحيّاه، لكن الحصان لم يتحرّك.

اتضح لـ مومين ترول أن جسم الحصان مصنوع من الثلج، وذيله من المكنسة التي في سقيفة الخشب، وعيناه عبارة عن مرايا صغيرة استطاع رؤية صورته فيهما. وهذا أخافه قليلاً. ولذلك تحوّل منعطفًا من ناحية أجمة الياسمين الجرداء.

"لو أن هنا روحًا واحدة فقط أعرفها من قبل،" فكّر مومين ترول. "شخصًا غير غامض، بل عاديًا جدًا. شخصًا قام من النوم مثلي، ولم يشعر أنه في دياره. حينها يمكن المرء أن يقول له: مرحبًا! أليس البرد شديدًا؟ الثلج شيء سخيف.. ماذا؟ هل رأيت أجمة الياسمين؟ أتتذكّر الصيف الماضي، عندما..؟"

“أو أشياء مشابهة لهذا.”

وجد تو-تيكي جالسة على حاجز الجسر تغنّي.

“أنا تو- تيكي، أنا من صنع الحصان،” غنّت.

أبيض وبريّ حصاني، حرًا يقفز

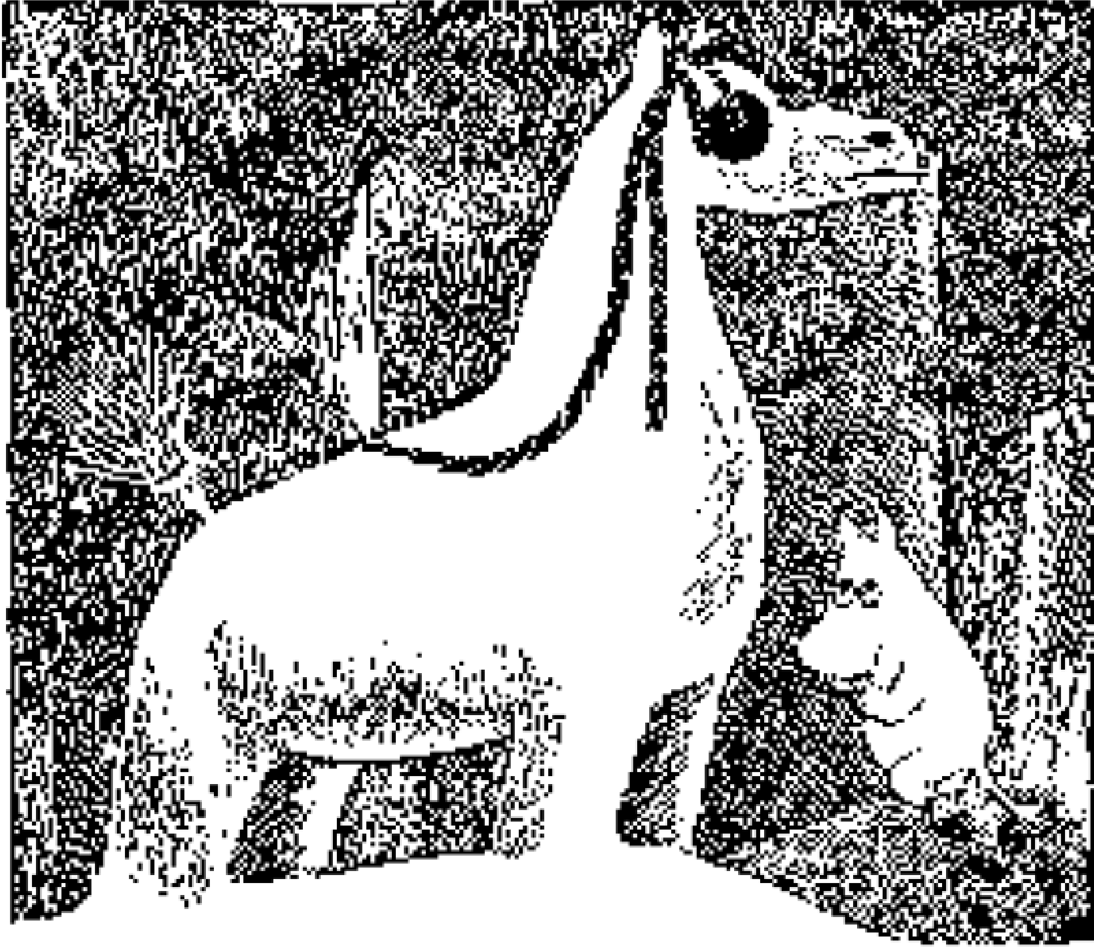
يخوض الثلج ويعدو نحو الليل،

حصان أبيض ومهيب يعدو،

يحمل الصقيع العظيم على ظهره.

ثم عادت إلى ترديد اللازمة.

“ماذا تقصدين؟” سألها مومين ترول.



“أعني أنّنا سنسكب ماء النهر فوقه اللّيلة،” أجابت تو-تيكي. “فيتجمّد خلال الليل ويصبح جليدًا. وحينما تُقبل سيدة الصقيع العظيم سيعدو بعيدًا ولا يعود ثانية مطلقًا.”

التزم مومين ترول الصمت.

بعد برهة قال” “ثمّة شخص ما يأخذ الأشياء من بيتنا.”

“أليس هذا لطيفًا،” أجابت تو-تيكي بمرح. “لديكم مقتنيات كثيرة حولكم. سواء الأشياء التي تتذكّرون وجودها أو الأشياء التي تحلمون باقتنائها.”

ثم شرعت تغني المقطع الشعري الثاني.

استدار مومين ترول ورحل. "إنها لا تفهمني،" فكّر. ومن ورائه تعالت الأنشودة المرحة.

"غنّي كما يحلو لكِ،" تمتم مومين ترول وقد استبدّ به الغضب إلى درجة البكاء. "تغنّي بشتائك المروّع وجليده القاتم، وأحصنة الثلج غير الودودة، وأهله الغامضين الذين يواصلون الاختباء ولا يظهرون أبدًا!"



مضى صاعدًا المنحدر رافسًا الثلج بقدمه، ودموعه تجمّدت على أنفه. ثم فجأة انبرى ينشد أغنيته الخاصة.

غنّى بأعلى صوته حتى تسمعه تو-تيكي وتهمد.

هذه هي أغنية مومين ترول الصيفية الغاضبة:

اسمعيني، مخلوقات الشتاء يا من

سرقتِ الشمس،

يا من تندسّ بجنح الظلام،

وتعتم الوديان.

أنا وحيدٌ وحيد، ومتعب حتى النخاع.

أسأمتني حقًا كتل الثلج، توقعني

وتزمجر.

أريد شرفتي الزرقاء وأتوق إلى

لقاء البحر.

مرّة واحدة أقول وإلى الأبد،

شتاؤك ليس لي!

“انتظري يا هذه حتى يحين الأوان، وترجع شمسي لتنظر إليك، وساعتها سيُفتضح أمر الجميع، ويظهر سخفهم،” صاح مومين ترول الذي ما عاد مهتمًا بانتقاء كلماته.

أنا حينذاك سأرقص على قرص زهرة دوار

الشمس، وأنبطح على الرمل الدافئ

ونافذتي مشرعة طوال اليوم

على الحديقة والنحل الطنّان

والسماء الزرقاء

وعلى البديعة

بصفرتِها البرتقالية

شمسي أنا!

وما إن أنهى أغنيته المتحدّية حتى أطبق سكون عظيم.

وقف يستمع لفترة، لكن أحدًا لم يعارضه.

"سيحدث شيء ما حتمًا،" فكّر وهو يرتعد. وشيء ما حدث بالفعل.

على ارتفاع عالٍ، قريبًا من قمّة التلّ، أقبل شيء ما ينْزلق قدمًا. اندفع نازلاً وسط ندف ثلج متلألئة، وصاح: "تنحّ جانبًا، ابق بعيدًا!"

لم يستطع مومين ترول سوى أن يحدّق مذهولاً.

فنحوه مباشرة اندفعت الصينية الفضّية، وعليها جلس بيت البيضة المفقود. "لا بدّ أن تو-تيكي صبّت عليهما ماء النهر،" هذا ما خطر له وقد تسنّى له الوقت للتفكير. "والآن انبعثت فيهما الحياة، وستعدوان بعيدًا ولن تعودا مطلقًا.."

ثم حدث الاصطدام. وسقط مومين ترول أرضًا، عميقًا بين طبقات الثلج، ومع ذلك، استطاع حتى وهو تحت سطح الأرض أن يسمع قهقهة تو-تيكي.

سمع أيضًا ضحكة أخرى؛ لا تعود إلا إلى مخلوق واحد فقط في كلّ العالم.

"ماي الصغيرة!" صاح مومين ترول بفم ملآن بالثلج. زحف ليقف على قدميه وقد غمرته السعادة والأمل.



نعم، هناك كانت، جالسة على الثلج، تلبس بيت البيضة بعد أن صنعت فيه فتحات لرأسها وذراعيها، والوردة المطرزة تزيّن منتصف بطنها.

"ماي الصغيرة!" صاح مومين ترول مرّة أخرى. "آه، لا يمكنك أن تعرفي.. كان الأمر غريبًا جدًا، موحشًا.. أتتذكّرين الصيف الفائت عندما....؟

"لكننا في الشتاء الآن،" قاطعته ماي الصغيرة، وأخذت تبحث في الثلج عن الصينية الفضّية. "كانت سقطتنا قوية، ها؟"

"استيقظتُ وما استطعت العودة إلى النوم ثانية،" أخبرها مومين ترول. "علق الباب، وضاعت الشمس، حتى الساكن تحت المغسلة لم..."

"إي.. إي.." هتفت ماي الصغيرة بمرح. "فبدأتَ حينئذٍ تلصق الصور على الحيطان. ما زلتَ مومين ترول القديم نفسه. والآن هل تراني أستطيع تسريع هذه الصينية إذا فركتها بدهن الشمع؟"

"إنّها فكرة،" قالت تو-تيكي.

"أعتقد أنني سأحصل على قوة دفع على الثلج،" تابعت ماي الصغيرة، "إذا وجدتُ في بيت مومين شيئًا يمكن استخدامه كشراع."

نظر مومين ترول إليهما وفكّر لبرهة.

ثم قال بهدوء: "يمكنكِ أن تستعيري خيمة الشمس التي عندي."

في عصر اليوم نفسه أدركت تو-تيكي وهي تشمّ الهواء بأنفها أن سيدة الصقيع العظيم كانت في طريقها إليهم. صبّت ماء النهر على الحصان وحملت كومة من الحطب إلى بيت الاستحمام.

"ابقوا في الداخل اليوم لأنّها قادمة،" قالت تو-تيكي.



هزّت السنافر الخفية رؤوسها موافقة، ومن الخزانة تصاعدت همهمة استجابة. خرجت تو-تيكي لتحذّر الآخرين.

"لا تقلقي،" قالت ماي الصغيرة. "سأدخل حتمًا حينما أشعر بقرص في أصابع قدمي. ثم إنني يجب أن ألقي بعض القشّ على أختي." ثم أقلعت بصينيتها على الجليد.

وواصلت تو-تيكي دربَها نحو الوادي. في الطريق قابلت السنجاب ذا الذيل الرائع. "لازِم البيت الليلة لأن سيدة الصقيع العظيم قادمة،" حذّرته تو-تيكي.

"طيب،" قال السنجاب. "هل رأيتِ كوز تنّوب تركته هنا في مكان ما؟"

"لا، لم أره،" أجابت تو-تيكي. "عدني ألا تنسى ما قلتُ لك. لازِم البيت بعد زوال الشفق. هذا مهم."

هزّ السنجاب رأسه بذهن شارد.

تابعت تو-تيكي طريقها إلى بيت آل مومين وتسلّقت سلم الحبل الذي دلاّه مومين ترول في الخارج. فتحت الفتحة ونادته.

كان مومين ترول يرتق ثياب سباحة العائلة بخيط من القطن المبروم.

"أريد فقط أن أعلمك أن الصقيع العظيم في طريقه إلينا،" قالت تو-تيكي.

"صقيع أشدّ مما نحن فيه؟" سألها مومين ترول. "إلى أي حدّ يمكن أن يزداد البرد؟"

"هو الأكثر خطورة،" قالت تو-تيكي. "وستأتي به سيدة الصقيع بعد الظهر من البحر مباشرة، عندما تصطبغ السماء باللون الأخضر."

"هيَ أنثى إذًا؟" سأل مومين ترول.

"نعم، وجميلة جدًا،" قالت تو-تيكي. "لكن، إذا نظرت إلى وجهها ستتجمّد وتتحوّل إلى جليد. ستصبح صلبًا مثل بسكويت لا يتفتت. لذلك خير لك أن تبقى في الداخل الليلة."

زحفت تو-تيكي مغادرة السطح. ومضى مومين ترول إلى القبو وكوّم مزيدًا من الفحم في موقد التدفئة المركزية. ونشر أيضًا بعض البسط فوق العائلة النائمة.

ثم عبأ الساعات وخرج. شعر أنه يرغب في الحصول على رفقة حينما تقوم سيدة الصقيع بزيارتها.

كانت السماء قد غدت أكثر شحوبًا واخضرارًا عندما وصل مومين ترول إلى بيت الاستحمام. أما الريح فغرقت في سبات عميق، ومن بين الجليد عند الشاطئ انتصبت سوق القصب الميت متصلّبة وثابتة.

أصغى جيدًا، وخيّل إليه أنه يستطيع سماع صوت همهمة عميقة ومنخفضة ووئيدة في الصمت نفسه. ولعلها نجمت عن الجليد الذي أخذ يزداد ويزداد تجمّدًا في أعماق البحر.

كان بيت الاستحمام جيّد التدفئة، وعلى الطاولة انتصب إبريق شاي ماما مومين الأزرق.

جلس على كرسي الحديقة وسأل: "متى ستأتي؟"

"قريبًا جدًا،" قالت تو-تيكي. "لكن لا تقلق."

"حسنًا، إن سيدة الصقيع لا تقلقني،" قال مومين ترول. "الآخرون هم من يقلقني. أولئك الذين لا أعلم عنهم شيئًا. مثل الساكن تحت المغسلة. والآخر الذي في الخزانة. أو الغروك التي تكتفي فقط بالنظر إليك ولا تنبس مطلقًا ببنت شفة."

حكّت تو-تيكي أنفها وفكّرت. "حسنًا، إن الحال هكذا،" قالت. "هناك أشياء كثيرة لا مكان لها في الصيف والخريف والربيع. وهي تشمل كلّ ما هو خجول قليلاً وغريب قليلاً. إنها فئات من مخلوقات الليل وأهله من الذين لا يتّفقون مع غيرهم، والذين لا أحد يؤمن بوجودهم حقًا. هؤلاء يبقون بمنأى عن غيرهم

طوال السنة. وعندما يصبح كلّ شيء ساكنًا وأبيض وتغدو الليالي طويلة ومعظم الناس نيام يظهرون.”

“هل تعرفينهم؟” سألها مومين ترول.

“أعرف بعضهم. أنا على سبيل المثال أعرف الساكن تحت المغسلة معرفة جيدة. لكنني أظنّ أنه يريد أن يعيش حياة سرّية، ولذلك لا أستطيع أن أعرّفك إليه.”

رفس مومين ترول قدم الطاولة وتنهّد. “فهمت، فهمت،” أجاب. “أنا لا أريد أن أعيش حياة سرية. ولا ينفكّ المرء هنا يتعثر بأشياء جديدة وغريبة في آن، ولا روح واحدة تسأل الآخر عن عالمه الذي عاش فيه من قبل. بل حتى ماي الصغيرة لا تريد التحدّث عن العالم الحقيقي.”

“وكيف يعرف المرء أي عالم هو الحقيقي؟” قالت تو-تيكي وهي تضغط أنفها على لوح الزجاج. “ها هي.”

دُفع الباب وفُتح، وتركت ماي الصغيرة الصينية الفضية تندفع قدمًا قبلها على طول أرض الغرفة.

“الشراع مقبول،” قالت. “لكن ما أحتاجه الآن بالفعل هو وشاح. لن يناسبني بيت بيضة أمك مطلقًا مهما حاولت أن أغيّر في مواضع الفتحات. وهو حاليًا يبدو مثل شيء لا يجرؤ المرء على إعطائه ولا حتى إلى قنفذ مُرَحّل*.”

*ملاحظة: “قنفذ مُرَحّل هو قنفذ رُحِّل من بيته رغمًا عنه، بدون حتى أن يتاح له وقت كافٍ لحزم فرشاة أسنانه.” تعليق المؤلفة.



“أرى هذا،” أجاب مومين ترول وهو يعاين غطاء البيضة بنظرة كئيبة.

وما كادت ماي الصغيرة ترميه على الأرض حتى أخذه سنفور خفي من هناك إلى رفّ الموقد.

“والآن، هل هي آتية؟” قالت ماي الصغيرة.

“أعتقد هذا،” قالت تو-تيكي بهدوء. “دعونا نلقي نظرة.”

مضوا إلى المنصّة وتشمّموا الهواء من ناحية البحر. كانت سماء المساء خضراء من جميع الجهات، وبدا العالم كلّه كأنه مصنوع من زجاج رقيق. كلّ شيء ساكن، لا شيء يتحرّك، أما النجوم الصغيرة فكانت تتلألأ في جميع أنحاء السماء، وتعكس بريقها على الثلج. والجوّ قارس جدًا.

“نعم، إنها في الطريق،” أعلنت تو-تيكي. “يُستحسن أن ندخل البيت.”

توقّف السنفور الخفي عن العزف تحت الطاولة.

ومن بعيد على الثلج أقبلت سيدة الصقيع العظيم. كانت ناصعة البياض كالشموع، ولكن إذا نظر المرء إليها من خلال لوح الزجاج الأيمن بدت حمراء، أما من خلال لوح الزجاج الأيسر فبدت ذات لون أخضر باهت.

فجأة شعر مومين ترول أن برودة لوح الزجاج ازدادت إلى درجة أنّها آلمته. فأبعد أنفه مجفلاً قليلاً.

جلسوا قريبًا من الموقد وانتظروا.

"لا تنظروا،" نبّهتهم تو-تيكي.

"اسمعوا، ثمّة شيء ما هنا يتسلّق إلى حضني،" صاحت ماي الصغيرة على حين غرّة، ونظرت إلى تنورتِها الخالية من أي شيء.

"إنهم سنافري،" أوضحت تو-تيكي. "هم خائفون. اجلسي ساكنة وسينْزلون قريبًا."

في هذه الأثناء كانت سيدة الصقيع تمرّ ببيت الاستحمام. ولعلها ألقت نظرة عابرة من النافذة، لأن تيارًا صقيعيًا اكتسح الغرفة فجأة وأعتم الموقد المتوهّج للحظة. ثم انتهى كلّ شيء. وسرعان ما قفزت السنافر الخفية بشيء من الحرج من حضن ماي الصغيرة. وأسرع الجميع إلى النافذة ونظروا.

كانت سيدة الصقيع تقف قريبًا من سوق القصب وقد أولتهم ظهرها، وكانت منحنية على الثلج.

“إنه السنجاب،” هتفت تو-تيكي. “نسي ملازمة بيته.”

التفتت سيدة الصقيع بوجهها الجميل نحو السنجاب، وعن غير قصد خدشته وراء إحدى أذنيه. مسحورًا حملق السنجاب فيها، حملق مباشرة في عينيها الزرقاوين الباردتين. ابتسمت سيدة الصقيع وتابعت طريقها.

غير أنّها تركت السنجاب الصغير الأحمق ممدّدًا على ظهره متصلبًا وخدرًا وقوائمه الأربع في الهواء.



“يا للأسف،” قالت تو-تيكي بوجه متجهّم، ثم سحبت طاقيتها لتغطّي أذنيها وفتحت الباب، فتدافعت إلى الداخل سحابة من ضباب الثلج. مضت تو-تيكي خارجة، ثم عادت فورًا واندفعت إلى الداخل ووضعت السنجاب على الطاولة.

سارعت السنافر الخفية إلى جلب الماء الساخن، ولُفّ السنجاب بمنشفة دافئة. لكن قوائمه الصغيرة بقيت متخشّبة ومعلّقة في الهواء بطريقة محزنة. ولم يهتزّ له شارب.

“إنه ميت تمامًا،” قالت ماي الصغيرة مسلّمة بالأمر الواقع.

“على الأقلّ رأى شيئًا جميلاً قبل أن يموت،” قال مومين ترول بصوت مرتجف.

“أوه، حسنًا،” هتفت ماي الصغيرة، “لا شكّ أنه نسي ذلك الآن. وسأصنع لنفسي وشاحًا صغيرًا ولطيفًا من ذيله.”

“لا، لا يمكنكِ ذلك،” صاح مومين ترول بانزعاج شديد. “يجب أن يكون ذيله معه في القبر، لأنه لا بدّ أن يُدفن، أليس كذلك يا تو-تيكي؟”

“هممم،” همهمت تو-تيكي. “من الصعب جدًا أن نعلم ما إذا كان الناس يجدون أي مسرّة في ذيولهم وهم أموات.”

“رجاءً،” توسّل مومين ترول. “لا تأتوا على ذكر موته طوال الوقت. هذا محزن جدًا.”

“الميت ميت،” قالت تو-تيكي بلطف. “سيتحوّل هذا السنجاب إلى تراب في الوقت المناسب. ولاحقًا ستنمو منه أشجار تطفر حولها سناجب فتية. هل تعتقد أن هذا محزن جدًا*؟”

“ربما لا،” قال مومين ترول وتمخّط. “في جميع الأحوال سيُدفن غدًا، وذيله معه، وسنعدّ له جنازة لطيفة تليق به.”

كان بيت الاستحمام في اليوم التالي باردًا جدًا. وبالرغم من اشتعال النار في الموقد، بدا واضحًا أن السنافر الخفية مرهقة. كان أسفل غطاء إبريق القهوة الذي أحضره مومين ترول من البيت مكتسيًا بطبقة رقيقة من الجليد.

رفض مومين ترول احتساء القهوة احترامًا للسنجاب الميت. “عليك يا تو-تيكي أن تعطيني رداء الاستحمام،” قال بصوت جادّ. “أعرف من ماما أن الجنائز باردة دائمًا.”

*ملاحظة: "إذا شعر القارئ أن هذا محزن جدًا، فيُستحسن أن ينظر بسرعة إلى محتوى صفحة (٥٠)." تعليق المؤلفة.

"استدِر وعدَّ حتى العشرة،" قالت تو-تيكي. فاستدار مومين ترول موليًا النافذة وجهه وبدأ العدّ. مع الرقم ثمانية أغلقت تو-تيكي باب الخزانة وناولته الرداء الأزرق.

"أوه، تذكّرتِ إذًا أن ردائي هو الأزرق." قال بفرح. ثم دسّ كفيه في جيوبه فورًا لكنه لم يجد أي نظارة شمسية هناك، فقط قليل من الرمل وحصاة صغيرة بيضاء كاملة الاستدارة وبالغة النعومة.

أغلق يده على الحصاة. ووجد في استدارتها طمأنينة الصيف كلّها. بل تراءى له أنّها ما زالت محتفظة ببعض الدفء الذي اكتسبته سابقًا من بقائها تحت الشمس.

"تبدو كما لو أنكَ في الحفلة غير المناسبة،" قالت ماي الصغيرة.

لم ينظر مومين ترول إليها.

"هل ستحضران إلى الجنازة أم لا؟" سأل بصوت وقور.

"بالطبع،" أجابت تو-تيكي. "كان سنجابًا لطيفًا بطريقته الخاصّة."

"خصوصًا ذيله،" ألمحت ماي الصغيرة.



لفّوا السنجاب بقلنسوة سباحة قديمة وخرجوا إلى البرد الحادّ.

تكسّر الثلج تحت أقدامهم، وتحوّلت أنفاسهم إلى سحب من الدخان الأبيض. وما لبث أن شعر مومين ترول بأنفه يتصلّب حتى ما عاد بمقدوره أن يجعّده.

"يا لها من مهمّة قاسية،" قالت ماي الصغيرة بمرح وطفرت قدمًا على الشاطئ المتجمّد.

"هلاّ أبطأتِ قليلاً؟ هذه جنازة." قال مومين ترول.

لم يكن قادرًا إلا على سحب أنفاس قصيرة من الهواء الجليدي.

"ما عرفت قطّ أن لديك حاجبين،" قالت ماي الصغيرة باهتمام. "إنها الآن بيضاء، وهي تجعلك تبدو أكثر ارتباكاً من أي وقت مضى."

"هذا صقيع،" قالت تو-تيكي بصرامة. "والزمي الهدوء الآن، لأنه لا أنت ولا أنا نعرف شيئًا عن الجنائز."

سرّى ذلك عن مومين ترول. وحمل السنجاب الصغير إلى البيت ووضعه أمام حصان الثلج.

ثم تسلّق سلّم الحبل ونزل إلى الصالة الدافئة المسالمة حيث هجع الجميع.

فتّش في جميع الأدراج. تحرّى الأمكنة كلّها، لكنه لم يجد ما يحتاجه.

ذهب إلى سرير أمّه وهمس سؤالاً في أذنها. تنهّدت واستدارت. كرّر مومين ترول سؤاله الهامس.



عندئذ أجابت ماما مومين من أعماق إدراكها الأنثوي لجميع تلك التقاليد الراسخة: "عصابات سوداء.. في خزانتي.. الرفّ الأعلى.. إلى اليمين.." ثم غرقت من جديد في بياتها الشتوي.

وهكذا، أحضر مومين ترول السلّم من تحت الدرج، وتسلّق إلى رفّ الخزانة الأعلى.

وجد هناك الصندوق الذي يحتوي على كلّ الأشياء غير الضرورية التي يمكن أن تكون ضرورية جدًا أحيانًا: عصابات سوداء للحداد، وعصابات ذهبية للاحتفالات المهمّة، ومفتاح البيت، وخفاقة الشراب، وأنبوب صمغ الخزف، ومقابض نحاسية احتياطية لأعمدة الأسِرّة، إضافة إلى أشياء أخرى.

عندما خرج مومين ترول ثانية كان يضع قوسًا أسود على ذيله. وثبّت أيضًا قوسًا أسود على قبّعة تو-تيكي.

لكن ماي الصغيرة رفضت رفضًا قاطعا أن تُزيّن.

"إذا كنتُ أشعر بالحزن، فلست أحتاج إلى إظهاره بقوس،" قالت.

"هذا إذا كنت تشعرين بالحزن،" قال مومين ترول. "لكنك لستِ كذلك."

"لا،" أقرّت ماي الصغيرة. "لا أستطيع. أنا إما مبتهجة أو غاضبة. هل سيساعد حزني السنجاب في شيء؟ لا. لكن إذا غضبتُ من سيدة الصقيع قد أعضّ ساقها ذات مرّة. وحينها ربما تمتنع عن خدش سناجب أخرى صغيرة من وراء آذانها لمجرد أنّها لطيفة ومنفوشة الفراء."

"لديك وجهة نظر جيدة،" قالت تو-تيكي. "لكن مومين ترول محقّ أيضًا، إذا كان من الممكن قول هذا. طيب، ماذا نفعل الآن؟"

“سأحفر الآن حفرة في الأرض،” أجاب مومين ترول. “هذه بقعة جيّدة، تنمو هنا باقات كثيرة من أزهار اللؤلؤ في الصيف.”

“لكن يا عزيزي،” قالت تو-تيكي بحزن، “الأرض بقسوة الحجارة، ولن تتمكّن حتى من دفن جندب فيها.”

نظر مومين ترول إليها حائرًا ولم يجب. لا أحد قال كلمة. وفي تلك اللحظة أحنى حصان الثلج رأسه وبحذر شمّ السنجاب. نظر إلى مومين ترول بعينيه العاكستين متسائلاً، واهتزّ ذيله المصنوع من المكنسة اهتزازًا طفيفًا.

في الوقت نفسه بدأ السنفور الموسيقار يعزف لحنًا حزينًا على نايه. هزّ مومين ترول رأسه بامتنان.

ثم حمل حصان الثلج السنجاب على ظهره، السنجاب وذيله وقلنسوة السباحة وكلّ شيء، وبدأ الجميع يعودون أدراجهم إلى الشاطئ.

وغنّت تو –تيكي هذه الأغنية عن السنجاب:

سنجاب صغير كان هنا،

سنجاب صغير جدًا.

ما كان نبيهًا كثيرًا

لكن جميلاً ودافئًا كان فراؤه.

والآن غدا باردًا تمامًا،

وقوائمه الأربع متخشّبة.

إنما ما زال هو هو،

السنجاب بالذيل الرائع.

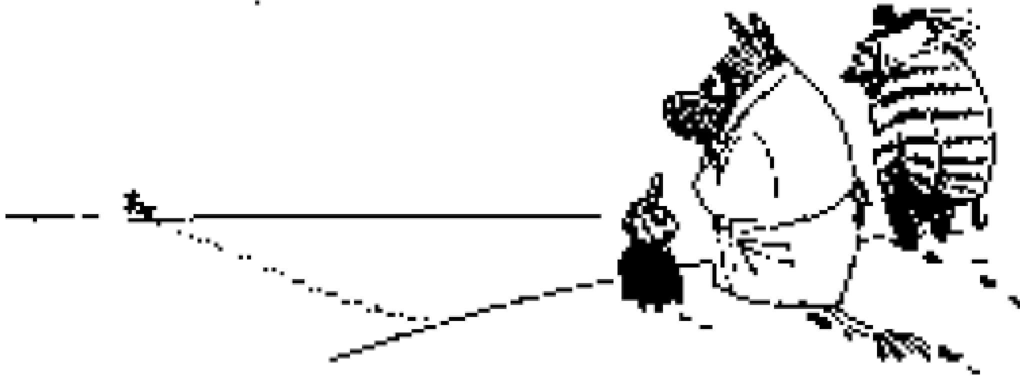
حينما تحسّس الحصان الجليد الصلب تحت حوافره، شمخ برأسه وومضت عيناه، وفجأة قفز قفزة كبيرة وجرى مبتعدًا.

انتقل السنفور الموسيقار إلى عزف لحن آخر سريع ونشيط. وأبعد فأبعد جرى حصان الثلج والسنجاب على ظهره، وفي النهاية غدا مجرّد نقطة في الأفق.

"أتساءل ما إذا تمّ الأمر كما ينبغي؟" قال مومين ترول بقلق.

"لا يمكن أن يتمّ بأفضل مما تمّ،" قالت تو-تيكي.

"بلى يمكن،" قالت ماي الصغيرة. "فقط لو حصلتُ على الذيل الجميل لأصنع منه وشاحًا."





الفصل الرابع
الانعزالي والعجيب

بعد بضعة أيام من جنازة السنجاب لاحظ مومين ترول أن شخصًا ما سرق فحمًا من سقيفة التخزين.

في الخارج رأى آثارًا كبيرة على الثلج، كما لو أن أكياسًا ثقيلة جُرّت بعيدًا.

"لا يعقل أن تكون ماي الصغيرة،" فكّر مومين ترول. "فهي ضئيلة الحجم جدًا. وتو-تيكي لا تأخذ إلا حاجتها. لا بدّ أنّها الغروك."

تتبّع الآثار وزغب رقبته منتصب. لم يكن هناك أحد آخر سواه ليحرس وقود العائلة، وكانت هذه مسألة شرف.

انتهت الآثار عند قمّة التلّ وراء الكهف.

هناك استقرّت أكياس الفحم. كانت مكوّمة بعضها فوق بعض ومُعدّة لصنع مشعلة، وعليها كلّها استقرّ مقعد حديقة العائلة الذي فُقدت إحدى رجليه في شهر أغسطس.

"سيبدو منظر احتراق ذلك المقعد جيدًا،" قالت تو-تيكي وهي تظهر من وراء المشعلة. "إنه قديم وجافّ كالغبار."

“إي، نعم،” أجاب مومين ترول. “إنه لدى العائلة منذ وقت طويل. كان يمكن أن نصلحه.”

“أو أن تصنعوا مقعدًا جديدًا،” قالت تو-تيكي. “هل تودّ سماع أغنية تو-تيكي التي أضرمت مشعلة شتاء عظيمة؟”

“إي، حتمًا،” أجاب مومين ترول بمودة.

وفي الحال شرعت تو-تيكي تضرب الثلج بقدمها ببطء، وهي تنشد الأغنية التالية:

ها هو الصامت يأتي،

والمنعزل والعجيب،

والبرّي والهادئ،

وقرع الطبل يعلو.

هي ذي المشعلة تطقطق

وهّاجة في الثلج الأبيض،

فتهسهس معها الذيول،

متمايلة فوق الثلج الهشّ،

والطبل يعلو قرعه

في ليل حالك السواد.

"سئمت من ثلجك وليلك،" صاح مومين ترول. "لا، لن أسمع اللازمة. أنا أشعر بالبرد! أنا وحيد! وأريد أن تعود الشمس ثانية!"

"ولكن هذا بالضبط ما يجعلنا نضرم نار الشتاء الليلة،" أعلنت تو-تيكي." ثم تابعت، "ستستعيد شمسك غدًا."

"شمسي،" كرّر مومين ترول بصوت مرتعش.

هزّت تو-تيكي رأسها وفركت أنفها.

بقي مومين ترول صامتًا لفترة طويلة.

ثمّ سأل بحذر: "هل تعتقدين أنّها ستلاحظ عدم وجود مقعد الحديقة؟"

"اسمع الآن،" تصدّت له تو-تيكي بصرامة. "عمر هذه االنار أكبر بألف سنة من عمر مقعد حديقتك. يجدر بك أن تشعر بالفخر لأنه مناسب بما يكفي ليوضع على القمة."

عندئذ كفّ مومين ترول عن الاحتجاج. "سأضطر إلى توضيح هذا للعائلة،" فكّر. "وربما ستكون هناك قطع خشب جديدة طافية على سطح الماء، ومقعد حديقة جديد على الشاطئ بعد العواصف الربيعية."

كان حجم االنار يزداد بعد أن أضيفت إليها جذوع الأشجار اليابسة التي سُحبت من سفح التل، مع القرم المتعفنة، والألواح والبراميل الخشبية القديمة التي يجدها الناس عادة على الشاطئ. لكن الأشخاص المحتفلين بالنار لم

يظهروا للعيان. وعلى الرغم من أن مومين ترول شعر أن التلّ يعجّ بهم، لم يلمح أي واحد منهم.



أقبلت ماي الصغيرة تجرّ صندوقها الكرتوني على الثلج. "ما عدت بحاجة إليه،" قالت. "الصينية الفضيّة أفضل بكثير. ويبدو أن أختي تحبّ الالتحاف ببساط الصالة. متى سنضرِم النار؟"

"مع ظهور القمر،" أجابت تو-تيكي.

شعر مومين ترول بإثارة عظيمة طوال المساء. تهادى في البيت من غرفة إلى غرفة وأضاء شموعًا أكثر من المعتاد. وبين حين وآخر وقف ساكنًا، يستمع إلى أنفاس النائمين المنتظمة، وإلى القرقعة الخفيفة في الحيطان بسبب ازدياد حدّة البرد.

تملّكه شعور متيقّن من أن جميع الأشخاص الغامضين سيخرجون من جحورهم ومكامنهم الليلة. جميع الخجولين وغير الواقعيين الذين أتت تو-تيكي على ذكرهم. وأنهم سيأتون زحفًا، صاعدين التلّ إلى المشعلة العظيمة

التي أضرمتها المخلوقات الصغيرة، لإرغام البرد والظلام على الرحيل. وأنه سيتمكّن الآن من رؤيتهم.

أضاء مومين ترول قنديل الزيت وصعد إلى العلية.

فتح الكوّة. لم يكن القمر قد طلع بعد، لكن الشفق القطبي الجنوبي أضفى على الوادي نورًا كئيبًا. عند الجسر في الأسفل لمح طابورًا من المشاعل يتحرّك قدمًا والظلال الواثبة تحيط به. كانوا في طريقهم إلى شاطئ البحر ومنه إلى رأس التلّ.

نزل مومين ترول بحذر والقنديل بيده. كانت الحديقة والغابة تفيضان بوميض أنوار وهمسات، وجميع الآثار تقود إلى التلّ.

حينما بلغ الشاطئ كان القمر قد ارتفع فوق الثلج، أزرق كالطبشور ونائيًا جدًا. تحرّك شيء ما بالقرب من مومين ترول، فرنا إلى الأسفل، إلى عيني ماي الصغيرة اللتين لمعتا لمعانًا شديدًا.

"ستكون نارًا رائعة،" قالت ضاحكة. "وستجعل نور القمر يبدو سخيفًا."

نظرا نحو قمّة التلّ في اللحظة نفسها، وشاهدا لهبًا أصفر يتصاعد نحو السماء. لقد أضرمت تو-تيكي نار المشعلة.

وفي الحال طوّقت النار المشعلة من أسفلها إلى أعلاها، وصدر عنها صوت يشبه زئير الأسد، فيما ألقت انعكاسها على الثلج القاتم مباشرة. اجتازت ليمونة وحيدة مومين ترول وهي تجري. كانت تلك السنفور الموسيقار الذي تأخر قليلاً عن طقوس الشتاء.

على قمّة التلّ، كانت الظلال الصغيرة والكبيرة تثب بطريقة شعائرية حول النار. وبدأت الذيول تقرع الطبول.

"قل وداعًا لمقعد الحديقة،" قالت ماي الصغيرة.

"ما احتجتُ إليه قطّ،" أجاب مومين ترول بنفاد صبر. ثم شقّ طريقه صاعدًا المنحدر المتجمّد الذي تلألأ في ضوء النار. كان الثلج يذوب من الحرارة، وخضّل الماء الدافئ قدميه.



“ستعود الشمس إلى الظهور،” فكّر مومين ترول بانفعال شديد. “لا مزيد من العتمة، ولا مزيد من الوحشة. سأعود إلى الجلوس تحت الشمس في الشرفة وأشعر بها تدفئ ظهري...”

وصل أخيرًا إلى القمّة. كان الهواء حول النار ساخنًا. وكان السنفور الخفي يعزف لحنًا آخر أكثر جموحًا.

لكن الظلال الراقصة ما لبثت أن بدأت تنسلّ مبتعدة، وواصلت الطبول قرعها في الجانب الآخر من النار.

“لماذا غادروا؟” سأل مومين ترول.

نظرت إليه تو-تيكي بعينيها الزرقاوين الهادئتين ساكنة. لم يبد له أنّها تراه حقًا. كانت تتأمّل عالمها الشتوي الخصوصي الذي التزم بطقوسه الغريبة سنة بعد سنة، في حين اضطجع هو مستسلمًا للنوم في بيت العائلة الدافئ.

“أين الذي يعيش في خزانة بيت الاستحمام؟” سألها مومين ترول.



“ماذا قلت؟” استفهمت تو-تيكي بذهن شارد.

“أودّ مقابلة الذي يعيش في خزانة بيت الاستحمام!” كرّر مومين ترول.

“أوه، ليس من المسموح له أن يخرج منها،” أجابت. “لا يمكنك أن تخمّن ما قد يخطر له القيام به.”

أقبلت مجموعة مخلوقات صغيرة ونحيفة السيقان، تنفخ ما يشبه خيوط الدخان على الجليد. واجتاز شخص بقرون فضيّة مومين ترول وهو يركل الثلج. وعند النار رفرف شيء أسود بجناحين كبيرين واختفى شمالاً. حدث كلّ شيء بسرعة غير متوقّعة، ولم يجد مومين ترول فرصة لتقديم نفسه.

“رجاءً تو-تيكي،” استعطفها وهو يشدّ بلوزتها.

قالت بلطف: “حسنًا، ذاك هو الساكن تحت المغسلة.”

كان مخلوقًا صغيرًا نوعًا ما بحاجبين كثيفين. قبع وحيدًا يتأمّل النار.

جلس مومين ترول إلى جانبه وقال: “عسى ذلك البسكويت لم يكن قديمًا جدًا؟”

نظر المخلوق الصغير إليه، لكنه لم يردّ.

“اسمح لي أن أطري حاجبيك بكثافتهما المميزة هذه!” تابع مومين ترول بأدب.

أجاب الوحش الصغير ذو الحاجبين الكثيفين على هذا بقوله: “شاداف كوموو.”

"آ.." استفهم مومين ترول بدهشة.

"رادامساه،" قال الوحش الصغير بنبرة نكدة.

"لديه لغته الخاصة، ويرى الآن أنك جرحت مشاعره،" أوضحت تو-تيكي.



"لكنني ما قصدت هذا مطلقًا،" أجاب مومين ترول بقلق. "طيب.. رادامساه.. رادامساه،" أضاف مناشدًا.

بدا أن هذا جعل غضب المخلوق الصغير يحتدّ. إذ هبّ واقفًا بسرعة كبيرة واختفى.

"يا ربّي، ماذا أفعل الآن؟" هتف مومين ترول. "سيسكن تحت مغسلتنا سنة كاملة بدون أن يعرف أنني ما أردت سوى صداقته."

"إن هذه الأمور تحدث،" قالت تو-تيكي.

تداعى مقعد الحديقة إلى أجزاء متفرّقة وسط وابل من الشرر.

في هذه الأثناء كان معظم اللهب قد خمد تقريبًا، غير أن الجمر الهائل استمر في الاحتراق، والماء فار في الشقوق. توقّف السنفور الموسيقار عن العزف فجأة، ونظر الجميع بعيدًا تجاه الثلج.

كانت الغروك جالسة هناك. عيناها الصغيرتان المستديرتان تعكسان وهج النار. ما عدا ذلك كانت مجرّد كتلة رمادية ضخمة لا شكل لها. وبدا أنّها كبرت كثيرًا منذ شهر أغسطس.

توقّفت الطبول بينما أقبلت الغروك تجرجر نفسها صاعدة التلّ. مضت مباشرة إلى النار. وبدون أن تقول أي كلمة جلست عليها.

صدر صوت هسيس ثاقب، وتغلّفت قمة التلّ بغشاوة من الدخان. ولما انقشع، ما عاد هناك أي جمر يمكن رؤيته، لا شيء سوى غروك ضخمة رمادية تنفخ ضباب الثلج حولها.

هرب مومين ترول إلى الشاطئ مع عدد كبير من الآخرين. وجد تو-تيكي هناك وصاح: "ماذا سيحدث الآن؟ هل جعلت الغروك الشمس تمتنع عن القدوم؟"

"اهدأ،" أجابت تو-تيكي. "هي في الحقيقة لم تأت لتخمد النار، بل جاءت هذه المخلوقة المسكينة لتتدفأ. لكن كلّ ما هو دافئ يبرد حالما تجلس عليه. وها قد خاب أملها مرّة أخرى."

لمح مومين ترول الغروك تنهض ثانية وتشمّ الجمر المتجمّد. ثم رآها تمضي إلى قنديله، الذي ما زال مشعشعًا فوق الثلج، وسرعان ما رآه ينطفئ.

بقيت الغروك هامدة للحظة. أما التلّ فكان خاليًا لأن الجميع غادروه. بعدئذ انزلقت على الثلج، وعادت لتختفي في الظلام وحدها، كما جاءت.

يمّم مومين ترول البيت.

قبل أن يأوي إلى السرير، شدّ برفق أذن ماما مومين وقال لها: "لم تكن حفلة مرحة جدًا."

"آه.. حقًا،" غمغمت ماما مومين في نومها. "ربما في المرة القادمة..."

وتحت المغسلة قبع المخلوق ذو الحاجبين الكثيفين يدمدم بينه وبين نفسه.

"رادامساه!" قال بحدّة. "رادامساه!" كرّر وهزّ كتفيه بعنف. وربما لا أحد في الوادي كلّه كان بمستطاعه أن يفهم ما يقوله.

كانت تو-تيكي جالسة تحت الجليد ومعها صنارة الصيد. ولطالما راقت لها طريقة هبوط مستوى البحر قليلاً بين حين وآخر. ففي أوقات كهذه تمكّنت من النزول بسهولة عبر فتحة في المنصّة والجلوس على جلمود لتصطاد السمك. حينها يجد المرء نفسه جالسًا تحت سماء من جليد أخضر لطيف والبحر عند قدميه.

أرض سوداء وسقف أخضر، كلاهما يمتدّ مترامي الأطراف في الظلام.



كان ثمة أربع سمكات مستقرّة إلى جانب "تو-تيكي". وما إن تصطاد واحدة أخرى حتى تحصل على وجبتها.

فجأة سمعت خطوات مضطربة تتقدّم على طول المنصّة. وفي الأعلى نقر مومين ترول باب بيت الاستحمام. ثم انتظر لحظة وعاود النقر.

"ها!" صاحت تو-تيكي. "أنا تحت الجليد!"

أطلّ الصدى برأسه واتجه صوب مكان ما على يسارها وردّد: "هاهاها!" راح وجاء عدّة مرات وردّد: "تحت الجليد!"

بعد هنيهة دسّ مومين ترول أنفه بحذر في الفتحة. كانت أذناه مزينتين بشرائط ذهبية رفيعة.

نظر إلى الماء الأسود الذي تصاعد منه البخار وإلى سمكات تو-تيكي الأربع.

قال وهو يرتعش: "حسنًا، إنها لم تأت."

“من؟” سألته تو-تيكي.

“الشمس!” زعق مومين ترول.

“الشمس س س،” ردّد الصدى. “شمس، شمس، شمس...” أبعد فأبعد، وأوهى فأوهى.

جذبت تو-تيكي خيط صنارتها.

“لا تستعجل الأمور،” قالت. “فهي لطالما جاءت في مثل هذا اليوم من كلّ سنة، لذا لا ريب في أنّها ستفعل هذا الآن. أبعِد أنفك حتى أتمكّن من الخروج من هنا.”

تسلّقت تو-تيكي إلى السطح، وجلست على درج بيت الاستحمام. تنشّقت الهواء من حولها وأرهفت السمع. ثم قالت: “قريبًا جدًا. اجلس وانتظر.”

أقبلت ماي الصغيرة تتزلّج على الجليد، وجلست إلى جانبهما. كانت قد ربطت صفائح معدنية بحذائها لتؤمّن لها سرعة أفضل في التزلج.

“ها نحن ننتظر حدثًا رائعًا آخر،” قالت. “ولا يعني هذا أنني أمانع الحصول على القليل من ضوء الشمس.”

ظهر من ناحية الغابة غرابان عجوزان يرفرفان، وحطّا على سقف بيت الاستحمام. ومرّت الدقائق.

فجأة وقف الزغب الذي على ظهر مومين ترول، وبحماسة عظيمة استشفّ بصيصًا أحمر يتجمّع في السماء الداكنة عند الأفق تمامًا. تكثّف البصيص إلى

شظية نارية حمراء ورفيعة، نثرت شعاعًا أحمر وطويلاً من النور على طول الجليد.

"ها هي!" صاح مومين ترول.

حمل ماي الصغيرة بين ذراعيه وفرقع قبلة على أنفها.

"ياه، يا لها من فوضى،" قالت ماي الصغيرة. "ما الداعي لإثارة هذه الضوضاء كلها؟"

"بالطبع هناك داعٍ،" صاح مومين ترول. "الربيع! الدفء! سيستيقظ الجميع! يا للروعة."

حمل السمكات الأربع ورماها عاليًا في الهواء. وقف على رأسه. شعر بسعادة ما سبق له قطّ أن شعر بها في حياته.



ثم، أظلم الجليد ثانية.

أقلع الغرابان، وطارا يرفرفان ببطء فوق الشاطئ. لمّت تو-تيكي سمكاتها، واختبأ الشريط الأحمر الصغير تحت الأفق.

"هل غيّرت رأيها؟" سأل مومين ترول بارتياع.

"لا عجب في هذا بعد أن لمحتكَ،" قالت ماي الصغيرة، وتزلّجت مبتعدة على صفيحتيها.

"ستعود غدًا،" أوضحت تو-تيكي. "وستكون حينها أكبر بقليل، مثل قشرة شريحة جبنة. خذ الأمور بيسر."

عادت تو-تيكي ونزلت تحت الجليد لتملأ قِدر الحساء بماء البحر.

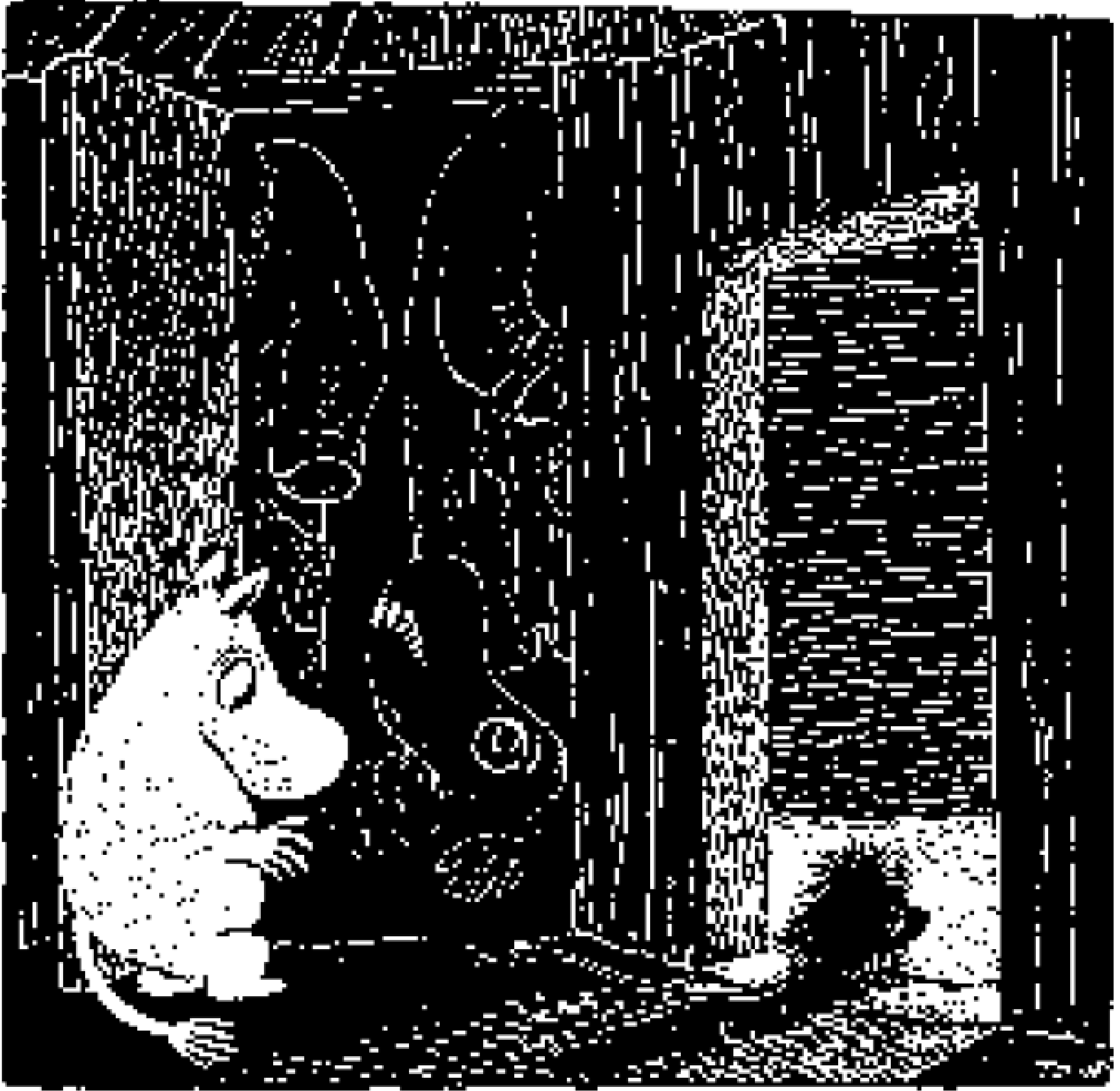
كانت محقّة بالطبع. إذ ليس من الممكن للشمس أن تظهر بمثل هذه البساطة في السماء. لكن، خيبة أملك لن تكون أخفّ وطئًا عليك لمجرّد إدراكك أن الآخرين على حقّ وأنت مخطئ.

قبع مومين ترول يحدّق في الجليد، وشعر فجأة أن الغضب يجتاحه. بدأ ذلك في بطنه شأنه شأن جميع المشاعر الطاغية. شعر أن أحدًا ما قد سخر منه.

وشعر أنه مغفّل لافتعاله تلك الضوضاء، ولأنه ربط أشرطة ذهبية حول أذنيه. بل هذا بالذات جعله يستشيط غضبًا.

أخيرًا، شعر أنه بحاجة إلى القيام بعمل فظيع جدًا وغير مسموح به، ليتمكّن من استعادة هدوئه، وأن يقوم بذلك في الحال.

هبّ على قدميه وقطع المنصّة جريًا، ثم دخل بيت الاستحمام وتوجّه مباشرة إلى الخزانة وفتح بابها على مصراعيه.



رأى هناك أردية الاستحمام المعلّقة، والدمية المطاطية التي تسرّب شيئًا من الهواء. وجد كلّ شيء على حاله التي كان عليها في الصيف. لكنه أبصر في

قعر الخزانة شيئًا داكنًا وصغيرًا يحدّق فيه؛ مخلوقًا كثيف الشعر ورماديًا وله خطم.

ثم دبّت الحياة في ذلك الكائن، وأزّ متجاوزًا مومين ترول مثل تيار، وولّى هاربًا. وفيما انزلق خارجًا من خلال شقّ باب بيت الاستحمام، علقت خصلة من فراء ذيله للحظة عابرة ثم تحرّرت. وبعدها اختفى المخلوق العجيب.

دخلت تو-تيكي حاملة القِدر بين يديها وهتفت: "لم تستطع مقاومة فتح الباب إذًا؟"

"لم يكن هناك سوى ما يشبه الجرذ العجوز،" أجاب مومين ترول بفظاظة.

"ذاك ليس جرذًا،" أجابت تو-تيكي. "إنه ترول. من النوع الذي كنت أنت نفسك عليه قبل أن تصبح مومين. هكذا كنت تبدو قبل ألف سنة."

لم يعثر مومين ترول على ردّ مناسب. وعاد إلى البيت، وجلس في الصالة ليفكّر.

بعد فترة جاءت ماي الصغيرة لتقترض شموعًا وسكّرًا. "سمعتُ أخبارًا فظيعة عنكَ،" قالت بابتهاج. "يُقال إنك أطلقتَ جدّك من الخزانة. وسمعتُ أنكما متشابهان."

"اسكتي رجاءً،" صاح مومين ترول.

ثم صعد إلى العلية ووجد ألبوم صور العائلة.



صفحة بعد صفحة من صور آل مومين المبجّلين التي التُقِطت غالبًا وهم واقفون أمام مواقد خزفية، أو في شرفات مزخرفة. إنما ولا واحد منهم يشبه ترول الخزانة.

"ثمة خطأ ما،" فكّر مومين ترول. "لا يمكن أن يمتّ لي بصلة."

عاد إلى الأسفل وتفحّص أباه النائم. الأنف فقط حمل شيئًا من التشابه مع خطم الترول. ولكن ربّما تشابه يعود إلى ألف سنة خلت..."

بدأت الثريا البلورية تجلجل. كانت تتمايل جيئة وذهابًا ببطء، وكان شيء ما يتحرّك داخل كيس الشاش. شيء صغير وكثيف الشعر. ومن بين الموشورات الزجاجية تدلّى نزولاً ذيل أسود وطويل.

“ذاك هو،” غمغم مومين ترول. “جدّي وجد لنفسه مستقرّا على الثريا.”

لم يبد له هذا مستهجنًا كثيرًا. فقد كان مومين ترول قد بدأ يعتاد الزمان الشتوي المسحور.

“كيف حالك؟” سأله بلطف. فنظر إليه الترول من خلال الشاش وحرّك أذنيه.

“انتبه للثريا،” تابع مومين ترول. “إنها إرث عائلي.”

أمال الترول رأسه، ونظر إليه بإمعان، محاولاً كما بدا أن يستمع.

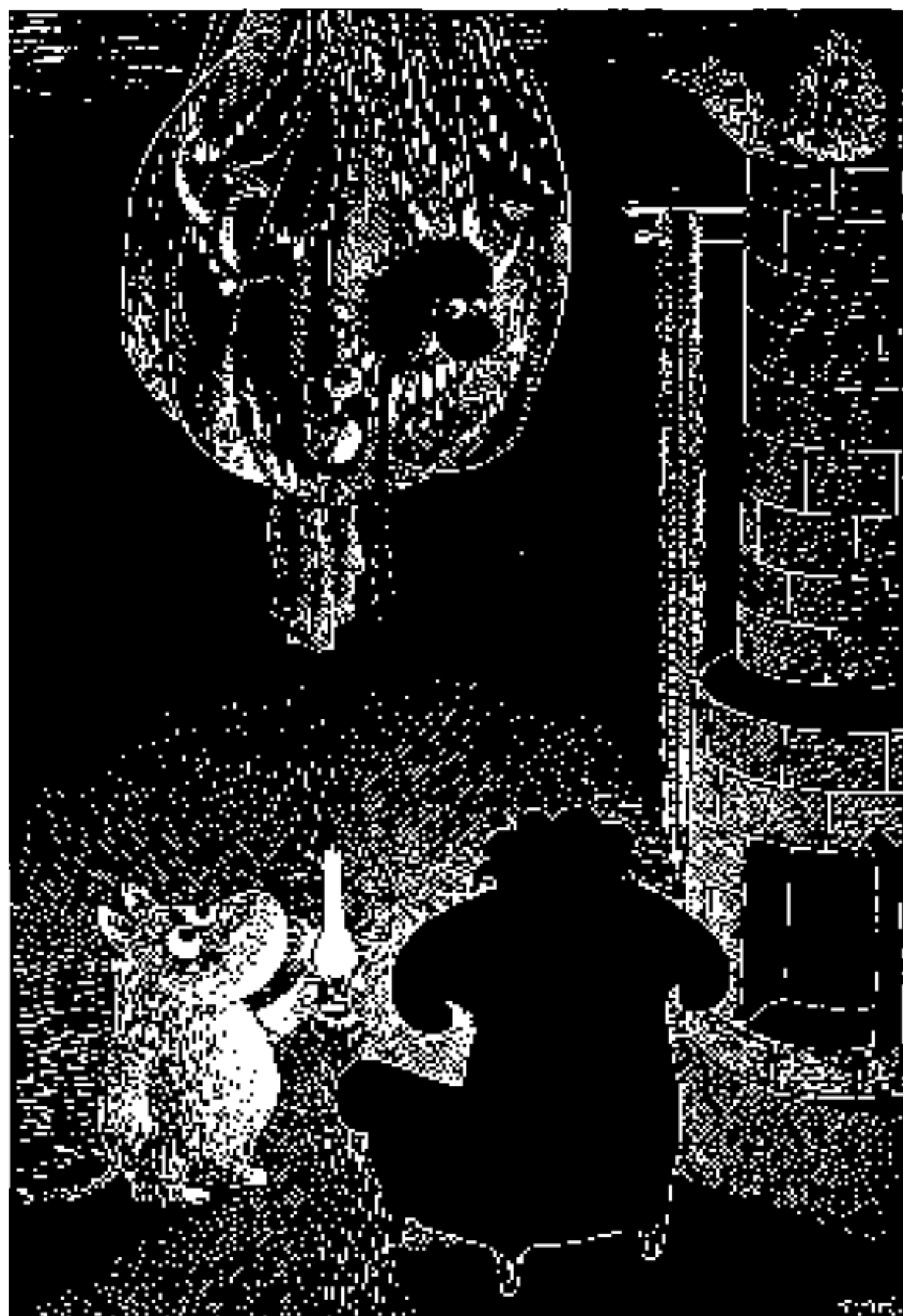
“سيتكلّم الآن،” فكّر مومين ترول. وفي الوقت نفسه شعر بخوف فظيع من أن سلفه قد يحاول إخباره شيئًا ما. ماذا لو تكلّم بلغة غريبة مثل المخلوق الصغير ذي الحاجبين؟ ماذا لو غضب وقال “رادامساه” أو أي شيء آخر؟ وقد يتأتّى عن ذلك أن لا تتوطد بينهما أي عرى صداقة فيما بعد.

“صه!” همس مومين ترول، “لا تقل شيئًا.”

من يدري، لعلهما في النهاية مرتبطان بصلة قربى على الرغم من كلّ شيء. والأقارب الذين يأتون للزيارة قد يبقون فترة من الزمن. وإذا كان جدّه الأكبر بالفعل فربّما يمكنه البقاء إلى الأبد. وفي حال لم يتوخ الحذر معه، قد يسيء فهمه ويغضب منه. وحينها ستضطر العائلة إلى أن تعيش طوال حياتها مع جدّ غاضب.

“صه!” كرّر مومين ترول، “صه!”

هزّ الجدّ الموشورات الزجاجية هزّا خفيفًا ولم يقل شيئًا.



“سأريه محتويات البيت،” فكّر مومين ترول. “هذا ما قد تفعله ماما إذا جاءنا قريب للزيارة.”

تناول القنديل ورفعه إزاء لوحة جميلة مرسومة باليد تدعى “فيلي جونك عند النافذة”. نظر الترول إليها وهزّ كتفيه.

توجّه مومين ترول إلى الأريكة المخملية، وأرى الترول المقاعد كلّها واحدًا بعد الآخر، ومرآة الصالة، ومنصّة الغليون، وكلّ ما هو جميل وقيّم مما تمتلكه العائلة.

تأملها الترول كلّها بعين يقظة. لكن بدا من الواضح أنه لم يفهم لأي شيء هي. تنهّد مومين ترول في النهاية ووضع القنديل على رفّ الموقد. وهذا أثار في الترول اهتمامًا بالغًا.

نزل من على الثريا وأسرع يتفحّص الموقد الخزفي كأنه حزمة صغيرة متحرّكة من الخرق الرمادية. حشر رأسه في مصراع الموقد وشمّ الرماد. أثار فيه الحبل المطرّز المتدلّي من الصمّام المنظِم فضولاً عظيمًا. ولوقت طويل استكشف أنفه الزاوية المظلمة بين الموقد والجدار.

“لا بدّ أن الأمر صحيح،” فكّر مومين ترول بقلق، “وأننا مرتبطان حقًا بصلة قربى، لأن ماما لطالما أخبرتني أن أجدادنا عاشوا في المواقد...”

في تلك اللحظة رنّ المنبه. فقد درج مومين ترول على جعله يدقّ عند الغسق، لأنه أكثر الأوقات التي يحنّ فيها إلى وجود رفقة.

ظهر التوتر بوضوح على الترول، وسارع إلى الاندفاع داخل الموقد وسط سحابة من الرماد. بعد لحظة بدأ يخبط الصمّام المنظِّم بطريقة ليست ودّية كثيرًا.

أسكتَ مومين ترول المنبّه، وأصغى بقلب تسارعت دقاته. لكنه لم يسمع أي شيء آخر.

سقطت بضع حبيبات سخام من المدخنة، وتمايل حبل الصمّام المنظِّم.

صعد مومين الصغير إلى السطح لتهدئة نفسه.

"هيه، كيف وجدت جدّك!" صاحت ماي الصغيرة من على زلاجتها.

"مخلوق رائع،" أعلن مومين ترول بعزّة نفس. "في عائلة عريقة مثل عائلتنا يعرف الناس كيف يُحسنون التصرف."

فجأة، تملّلكه فخر عظيم لحصوله على سلف. بل أسعده أكثر التفكير أن ماي الصغيرة ليس لديها أي نسب مطلقًا، إنما جاءت إلى العالم عن طريق الصدفة.

في تلك الليلة بدّل سلف مومين ترول ترتيب البيت، فعل ذلك بهدوء كافٍ ولكن أيضًا بقوة مدهشة.

مع حلول الصباح كان قد أدار الأريكة تجاه الموقد الخزفي، وعلّق جميع الصور بطريقة مختلفة. الصور التي لم يحبًها كثيرًا علّقها مقلوبة. (أو ربّما هي الصور التي اعتبرها الأفضل، من يدري؟) ولا قطعة أثاث واحدة بقيت في مكانها المعهود. أما المنبّه



فاستقرّ في دلو فضلات الطعام. بل زيادة على ذلك قام بنقل كومة من الخردة القديمة من العلية إلى الصالة وكدّسها حول الموقد.

جاءت تو-تيكي لتتفقّد الأحوال. "أعتقد أنه فعل هذا ليشعر أنه في البيت،" قالت وحكّت أنفها. "حاولَ أن يبني لنفسه أيكة لطيفة حول بيته، حتى ندعه وشأنه."

"لكن ماذا ستقول ماما؟" هتف مومين ترول.

هزّت تو-تيكي كتفيها. "حسنًا، ما الذي جعلك تطلق سراحه؟" قالت. "في جميع الأحوال هذا الترول لا يأكل شيئًا على الإطلاق. وهذا أمر عملي بالنسبة إليه وإليك. أرى أن تعتبر المسألة كلّها حدثًا طريفًا."

هزّ مومين ترول رأسه موافقًا.

استغرق في التفكير لفترة. ثم زحف نحو أيكة الكراسي المتكسّرة والصناديق الفارغة وشباك الصيد والأنابيب الكرتونية والسلال القديمة وأدوات البستنة. وسرعان ما اكتشف أنه كان مكانًا مريحًا.

قرّر قضاء ليلته في سلّة صوف استقرّت تحت كرسي هزّاز عديم الفائدة.

في واقع الأمر هو ما سبق له قطّ أن شعر بأي أمان في ضوء الصالة الخافت ونوافذها الجرداء. وتأمّل العائلة النائمة أصابه دائمًا بالكآبة.

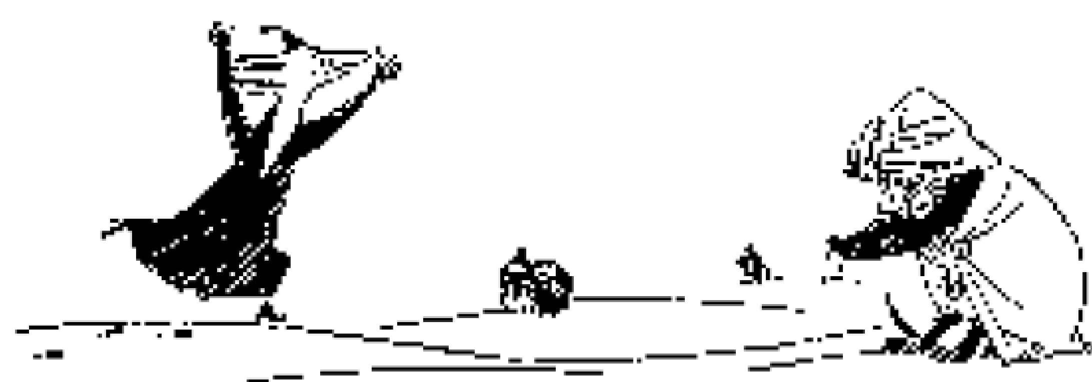
لكن هنا، في المساحة الصغيرة بين حقيبة السفر والكرسي الهزّاز وظهر الأريكة شعر بالسكينة وأنه ليس وحيدًا على الإطلاق.

كان بإمكانه أن يرى شيئًا من السواد داخل الموقد، لكنه حرص على عدم إزعاج جدّه الأعلى، وعمل على إقامة أسوار حول عشّه بقدر ما استطاع من هدوء.

في المساء احتفظ بالقنديل قريبًا منه، واستلقى يستمع لبعض الوقت إلى خشخشة جدّه في المدخنة.

"لعلي عشتُ هكذا قبل ألف سنة،" فكّر مومين ترول بسعادة.

خطر له أن يصيح قائلاً شيئًا في المدخنة؛ أي كلمة تشير إلى اتفاق سرّي بينهما. ثم رأى أن العدول عن ذلك أفضل، فأطفأ مصباحه وتقوقع على نفسه وسط الصوف.



الفصل الخامس
الضيوف الجُدد والعاصفة الثلجية

ارتفعت الشمس في السماء أعلى قليلاً مع مطلع كلّ يوم جديد. ووصلت أخيرًا إلى ارتفاع كافٍ لترسل أشعة واهية وحذرة على الوادي. كان ذاك من أهمّ الأيام. وكان أيضًا يومًا مميزًا، ففيه وصل غريب إلى الوادي بعد فترة الظهر بوقت قصير.

كان كلبًا صغيرًا وهزيلاً، يعتمر قبّعة صوفية بالية تغطي أذنيه. قال إن اسمه آسف-أوو، وأن القوت قد نفد من الوديان الشمالية. ومنذ أن مرّت سيدة الصقيع العظيم ما عاد لدى الناس أي شيء يأكلونه تقريبًا. وأُشيع أن واحدًا من جماعة الهيمولين بلغ به اليأس حدّ التهام مجموعته الخاصة من الخنافس. لكن هذا غير صحيح على الأرجح، ومن المحتمل أن يكون قد سطا على شيء من مجموعة خنافس هيمولين آخر. وأن عديدًا من الناس، على أي حال، في طريقهم الآن إلى وادي المومين.

وقِيل إن شخصًا ما أخبر الجميع أنهم سيعثرون هنا على توت العليق، وعلى قبو عامر بالمربّى. ولكن، لا ريب أن قبو المربّى هو أيضًا، بالرغم من كلّ شيء، مجرّد إشاعة...

قبع آسف-أوو على ذيله الهزيل فوق الثلج، وقد غضّن القلق وجهه.

“نقتات حساء السمك هنا،” أعلمته تو-تيكي. “وما سمعت قطّ عن أي قبو مربّى.”

ألقى مومين ترول نظرة مفاجئة على كومة الثلج المستديرة وراء سقيفة الخشب.

“إنه هناك!” هتفت ماي الصغيرة. “كميات المربّى التي فيه تجعلك تتقيأ من مجرّد التفكير فيها، وجميع الجِرار مؤرخة ومربوطة بخيط أحمر.”

“أنا تقريبًا أُعتبر المسؤول عن حراسة ممتلكات العائلة وهي نائمة،” أعلن مومين ترول واحمرّ وجهه قليلاً.

“نعم بالطبع،” غمغم آسف-أوو موافقًا.

نظر مومين ترول إلى الشرفة، ثم إلى وجه آسف-أوو المتغضّن.

“هل تحبّ المربّى؟” سأله بصوت أجشّ.

“لا أدري،” أجاب آسف-أوو بتواضع.

فتنهّد مومين ترول وقال: “حسنًا. احرص فقط على أن بدأ

بأقدم الجِرار عهدًا.”

بعد ساعات قليلة، أقبل قطيع من المخلوقات الزاحفة الصغيرة يقطع الجسر بتثاقل. وشوهدت مخلوقة من جماعة فيلي جونك مضطربة ومتذمّرة تطفر جيئة وذهابًا في الحديقة. قالت إن مزروعاتها تجلّدت، وأن أحدًا ما أتى على

مؤونتها الشتوية. وزيادة على ذلك، وهي في طريقها إلى وادي المومين، قابلت مخلوقة متغطرسة من فصيلة الغافساي، قالت لها إن الشتاء ليس مسألة يُستهان بها، فلماذا لم تستعدّ له جيدًا.

عندما حلّ الغسق، كان هناك عدد وافر من المخلوقات يسلك طريقه إلى قبو المربّى. والذين ما زالت في أرجلهم بقية من قوة نزلوا إلى الشاطئ واستقرّوا في بيت الاستحمام.

وفي جميع الأحوال، لم يُسمح لأحد بالاقتراب من الكهف. فقد أعلنت ماي الصغيرة أنه لا يمكن إزعاج أختها.

عندما ظهر مومين ترول على السطح حاملاً قنديله الزيتي، كان جمع من أكثر الوافدين بؤسًا، جالسًا أمام بيت آل مومين يندب حظّه العاثر. فقال لهم: "يُستحسن أن تدخلوا لقضاء الليل. لا أحد يدري ما قد يطرأ مع الغروك ومن هم على شاكلتها."

"ما كنت قطّ من متسلقي سلالم الحبال،" أعلن عجوز من جماعة الهومبر.

نزل مومين ترول وبدأ يحفر حتّى مدخل البيت. جرف وخدش وشقّ طريقه، حتى غدت الحفرة نفقًا طويلاً وضيقًا يمتدّ خلال الثلج، وعندما وصل في النهاية إلى حدود البيت، لم يعثر على أي باب، إنما طالعته نافذة فقط، جامدة ومتصلّبة مثل بقية النوافذ.

"لا ريب أنني أخطأت في اتجاه الحفر،" قال مومين ترول لنفسه. "وإذا حفرت نفقًا آخر الآن قد أخطئ الاتجاه كلّه." وهكذا كسر زجاج النافذة بأقلّ ضرر

ممكن، وبدأ الضيوف يزحفون إلى الداخل وراءه.

“رجاءً لا توقظوا العائلة،” قال مومين ترول. “هذه ماما، وذاك بابا، وهناك آنسة سنورك. جدّي الأعلى ينام في الموقد. ستضطرون إلى الالتحاف بالبسط لأن أغلب الأشياء الأخرى اقتُرِضت.”

انحنى الضيوف للعائلة النائمة. ثمّ لفّوا أنفسهم برضا، بالبسط ومفارش المائدة، وصغار الحجم منهم ناموا في القبّعات والخفاف وما يشبهها.

كان العديد منهم مصابًا بالزكام، وبعضهم أمضّه الحنين إلى البيت. “هذا فظيع،” فكّر مومين ترول. “سرعان ما سيفرغ قبو المربّى، وماذا أقول للعائلة عندما تستيقظ في الربيع وجميع الصور معلّقة رأسا على عقب والبيت يعجّ بالناس؟”

زحف عبر النفق إلى الخارج ليرى ما إذا كان قد تخلّف أحد.

كان ضوء القمر أزرق. ووحده على الثلج جلس آسف-أوو ينبح. رفع أنفه عاليًا ونبح مردّدًا أغنية سوداوية طويلة.

“لماذا لا تذهب للنوم؟” سأله مومين ترول. نظر إليه آسف-أوو بعينين لمعتا بلون أخضر تحت ضوء القمر، وإحدى أذنيه منتصبة ترهف السمع بعيدًا، والأخرى مائلة تستمع جانبًا. كان وجهه بأكمله يصغي.



تناهى إليهما عواء بعيد لذئاب تصطاد. هزّ آسف-أوو رأسه بكآبة وعاد وأرخى قبّعته الصوفية على أذنيه.

"إنهم إخوتي الأصليون البواسل،" همس. "كم أشتاق لصحبتهم."

"ألا تخاف منهم؟" سأله مومين ترول.

"نعم،" أجاب آسف-أوو. "وهذا هو الجزء المحزن." ثم انسلّ مبتعدًا على طول الطريق إلى بيت الاستحمام.

وانسلّ مومين ترول عائدًا إلى الصالة.

كانت إحدى المخلوقات الصغيرة فزعة من المرآة، وكانت قابعة في منصّة الغليون تنشج.

ما عدا ذلك كلّ شيء كان ساكنًا.

"يا للمشاكل التي لدى الناس،" فكّر مومين ترول. "لعل المربّى ليس بتلك المصيبة الفادحة بالرغم من كلّ شيء. وليس ثمّة ما يمنعني من أن أضع جرّة يوم الأحد جانبًا؛ جرّة مربّى الفراولة. في الوقت الحاضر على الأقل."

استيقظ الوادي في فجر اليوم التالي على نفير بوق عالٍ وصاخب. هبّت ماي الصغيرة من النوم في كهفها على الفور، وانطلقت قدماها تسابقان الزمن. نصبت تو-تيكي أذنيها، وأسرع آسف-أوو ليختبئ تحت أحد المقاعد وذيله بين ساقيه.

قعقع جدّ مومين ترول على الصمّام المنظِم بعنف، واستيقظ معظم الضيوف.

هرع مومين ترول إلى النافذة وزحف خارجًا عبر نفق الثلج.

كانت شمس الشتاء الواهنة تسطع على هيمولين ضخم اندفع نازلاً المنحدر الأقرب على زلاجتيه. كان يحمل بخرطومه بوقًا نحاسيًا لامعًا، وبدا عليه أنه مستمتع غاية الاستمتاع بوقته.

"ذاك سيأكل الكثير من المربّى،" فكّر مومين ترول. "وما تلك الأشياء الغريبة التي في قدميه؟"

وضع الهيمولين بوقه على سطح سقيفة الخشب ونزع زلاجتيه. "لديكم منحدرات جيدة في هذه البقعة،" قال. "هل مِن مسارب هنا؟""

"سأسأل،" قال مومين ترول.

زحف عائدًا إلى الصالة وسأل:

"هل هنا أحد يُدعى مسارب؟"

"أنا أُدعى ساروبي،" همست المخلوقة الصغيرة التي أخافتها المرآة.



رجع مومين ترول إلى الهيمولين وقال: "ليس على وجه التحديد، لكن الحروف متقاربة. يوجد هنا ساروبي."

إلا أن الهيمولين كان مستغرقًا في شمّ محيط البقعة التي يزرع فيها بابا مومين التبغ ولم يسمعه. "هذا مكان جيّد لبناء بيت،" قال. "سنبني كوخ إسكيمو هنا."

“يمكنك الإقامة في منْزلي،” قال مومين ترول بتردّد.

“لا، شكرًا،” أجاب الهيمولين. “إنه مكتظّ بالناس وفاسد الهواء. أريد هواءً نقيًا، وأريد الكثير منه. لنبدأ فورًا ولا نهدر أي وقت.”

كان ضيوف مومين ترول قد بدأوا يزحفون إلى الخارج. ثم تسمّروا، ووقفوا يحدّقون.

“ألن يعزف المزيد؟” سألت ساروبي الفتفوتة.

“هناك وقت لكلّ شيء يا آنستي المنمنمة،” قال الهيمولين بنبرة سريعة. “وهذا الوقت هو وقت العمل.”

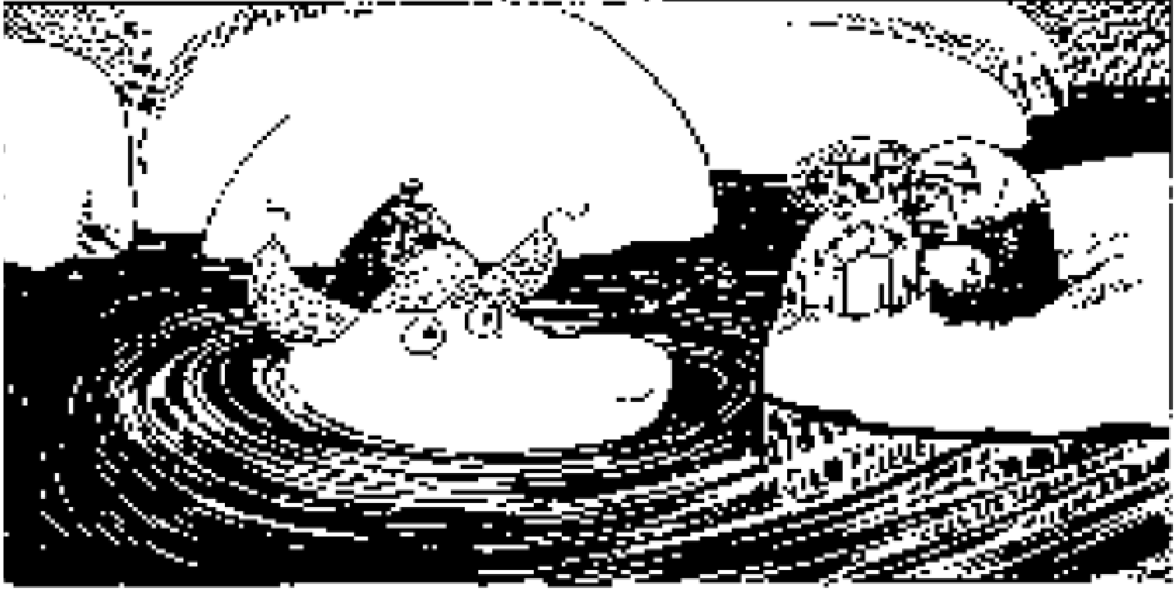
بعد فترة وجيزة انهمك جميع الضيوف في بناء كوخ إسكيمو عند بقعة تبغ بابا مومين. أما الهيمولين نفسه فكان يستمتع بالسباحة في النهر، وزوج من المخلوقات المتجمّدة من شدّة البرد يتفرّجان عليه بارتياع.

جرى مومين ترول إلى بيت الاستحمام بأقصى سرعة ممكنة.

“يا تو-تيكي،” صاح. “لدينا هيمولين هنا... سيسكن في كوخ إسكيمو، وهو في هذه اللحظة يستحمّ في النهر.”

“أوه، ذلك النوع من الهيمولين،” قالت تو-تيكي بنبرة حاسمة. “وداعًا للسكينة إذن، وكلّ تلك الأمور.” ثم وضعت صنارة صيد السمك جانبًا.

وفي طريق العودة التقيا ماي الصغيرة التي شعّت حماسة. “أرأيتما ما لديه؟” هتفت. “إنها تسمى زلاجات! سأحصل لنفسي على زوج منها في الحال!”





كان كوخ الإسكيمو قد بدأ يتشكّل. كدح الضيوف عليه بكلّ ما لديهم من طاقة. ولم يكفّوا قطّ عن إلقاء نظرات مشتاقة إلى مخزن المربّى. أما الهيمولين فراح يمارس تمارينه الرياضية عند النهر. "أليس البرد رائعًا؟" قال. "لا أكون مطلقًا بكامل لياقتي البدنية أكثر من فصل الشتاء. ألن تغطسوا في الماء قبل الفطور؟"

تفحّص مومين ترول قميص الهيمولين. كان ذا خطوط متعرّجة سوداء وصفراء ليمونية. تساءل بشيء من الارتباك لماذا لم يستلطف الهيمولين، على الرغم من أنه تاق وحنّ إلى صحبة شخص ليس غامضًا ولا انطوائيًا، ولكن مرحًا وواقعيًا مثل الهيمولين تمامًا.

ثم ما لبث أن شعر أنه أكثر غربة عن الهيمولين منه إلى المخلوق الغاضب المبهم الذي يعيش تحت المغسلة.

نظر ببؤس إلى تو-تيكي. كانت قد زمّت شفتها السفلى، ووقفت تنظر إلى قفازها وقد عقدت حاجبيها. أدرك مومين ترول أن تو-تيكي أيضًا لم تستلطف الهيمولين. فالتفت إلى الهيمولين وقال له بكلّ الدماثة التي يولّدها تأنيب الضمير: "لا ريب أن الولع بالماء البارد أمر رائع."

"أحبّه،" أجاب الهيمولين وهو يبتسم له ابتسامة عريضة.



“يضع حدًا لجميع الأفكار والأحلام غير الضرورية. صدّقني لا شيء أخطر من أن تصبح واحدًا من الذين يلازمون البيت.”

“هاه؟” ردّ مومين ترول.

“نعم. فهذا يولّد فيك أفكارًا شتّى،” أوضح الهيمولين. “متى تُفطرون هنا؟”

“عندما أصطاد بعض السمك،” قالت تو-تيكي بوجه متجهّم.

“لا آكل السمك أبدًا،” قال الهيمولين. “الخُضر والتوت فقط.”

“توت برّي؟” سأله مومين ترول بأمل. فجرّة التوت البرّي المهروس الكبيرة لم تكن ذات شعبية.

لكن الهيمولين أجاب: “لا، الفراولة هي ما أفضّل.”

بعد الفطور ثبّت الهيمولين زلاجتيه، وصعد إلى أعلى قمّة مجاورة، تلك التي تبدأ من رأس التلّ وتمرّ بالكهف. وفي الوادي، وقف الضيوف يتفرّجون عليه، وقد التبس عليهم قليلاً اتخاذ رأي ما بشأنه. تجوّلوا على غير هدى في الثلج، وجفّفوا أنوفهم بين حين وآخر لأنه كان يومًا قارس البرد.

أقبل الهيمولين مندفعًا نزولاً. وبدا المشهد مروعًا. انحرف في منتصف المنحدر، وسط سحابة من ندف الثلج المتلألئ، ثم خرج منها سالكًا اتجاهًا آخر. أطلق بعد ذلك صيحة عالية، وانحرف عائدًا. ثم راح يندفع في اتجاه ثم في آخر، وقميصه المقلم بالأسود والأصفر جعل عيون المتفرّجين تدمع.

أغمض مومين ترول عينيه وفكّر: “يا لشدّة اختلاف الناس بعضهم عن بعض.”

كانت ماي الصغيرة في تلك الآونة واقفة على قمّة التلّ، تصيح بابتهاج وإعجاب. كانت قد كسرت برميلاً وثبتت ضلعين منه تحت جزمتها.

“ها أنا قادمة،” صاحت. وبدون أي تردّد باشرت ماي الصغيرة الانطلاق نازلة التلّ. راقبها مومين ترول بعين واحدة، ورأى أنّها ستتدبّر أمرها. كان وجهها الصغير الشرس مفعمًا بعلامات الثقة الأكيدة، وكانت ساقاها بصلابة الأوتاد.

شعر مومين ترول فجأة بالاعتزاز لأن ماي الصغيرة ما أعاقها الخجل قطّ، اندفعت بسرعة خطرة قريبًا من جذع صنوبرة، ترنّحت، ثم استعادت توازنها، ووسط عاصفة من الضحك رمت نفسها على الثلج بجانب مومين ترول.

“إنها من أعزّ أصدقائي،” قال مخاطبًا الـ فيلي جونك.



“صادق،” أجابت الـ فيلي جونك بجفاف. “متى يحين موعد وجبة الساعة العاشرة هنا؟”

أقبل الهيمولين يتهادى نحوهم. كان قد نزع زلاجتيه، وخطمه يتلألأ من الدفء والابتهاج. “لنعلّم الآن مومين ترول التزلّج،” هتف.

“لا أحبّذ هذا، شكرًا،” غمغم مومين ترول وتراجع إلى الوراء. نظر حوله بحثًا عن تو-تيكي، لكنها كانت قد غادرت، ربما لتصطاد وجبة أخرى من السمك.

“أهمّ شيء هو أن تحتفظ بهدوئك مهما حدث،” قال الهيمولين مشجعًا وهو يثبّت الزلاجتين بقدمي مومين ترول.

“لكنني لا أريد أن...” اعترض مومين ترول بيأس.

ثم لاحظ أن ماي الصغيرة تتأمّله بحاجبين مرفوعين.

“أوه، طيب،” وافق بكآبة. “ولكن ليس من أعلى التلّ.”

“لا، لا، فقط المنحدر المؤدي إلى الجسر،” قال الهيمولين. “اثنِ ركبتيك. انحنِ إلى الأمام. لا تدع الزلاجتين تنفرجان كثيرًا. حافِظ على ظهرك مستقيمًا. أبقِ ذراعيك قريبتين من جسمك. أيمكنك أن تتذكّر كلّ ما قلته لك؟”

“لا،” أجاب مومين ترول.

ثم شعر بخبطة على ظهره، أغمض عينيه وانطلق. في البداية تباعدت المسافة بين قدميه كثيرًا، ثم تناقصت، ثم تشابكت الزلاجتان بعصي التزلج. وفوق الزلاجتين والعصي سقط مومين ترول بوضعية غريبة.

هلّل الضيوف.

"الصبر ضروري جدًا،" شجّعه الهيمولين. "هيا، دعنا نعاود الكرّة،"

"ساقاي ترتعشان بعض الشيء،" همس مومين ترول. فهذا كان بالنسبة إليه أسوأ من الشتاء الموحش. وحتّى الشمس التي أمضّه الشوق إليها، أشرقت على الوادي مباشرة، ناظرة إلى مذلّته.

في هذه المرة، بدا أن الجسر يهجم عليه عند أعلى التلّ. رفع مومين ترول ساقًا واحدة ليحفظ توازنه، وتزلّج بالساق الأخرى. هتف له الضيوف وقد بدأوا يجدون في الحياة شيئًا من المرح ثانية.

ما عاد هناك شيء في الأعلى، ولا شيء في الأسفل. لا شيء حوله سوى الثلج والبؤس والكارثة.

في نهاية المطاف وجد مومين ترول نفسه معلّقا على أجمة الصفصاف عند النهر، وذيله متدلٍ في الماء الثلجي، حيث تبعثرت الزلاجتان وعصي التزلج كشهود عدائيين استجدّوا على الساحة.

"التخاذل لن يفيدك،" علّق الهيمولين بلطف. "ستنجح في المرّة القادمة!"

لكن لم يكن هناك مرّة قادمة، لأن مومين ترول فقد عزمه. نعم بالفعل، على الرغم من أنه بعد ذلك بفترة طويلة، حلم في أوقات كثيرة بتلك المرّة الثالثة المكلّلة بالنصر. كيف أنه اندفع نحو الجسر بمناورة كاسحة، ثم توقّف والتفت نحو الآخرين مبتسمًا، بينما أخذوا يهلّلون له بإعجاب. بيد أن الأمور في الحقيقة لم تجر هكذا مطلقًا.

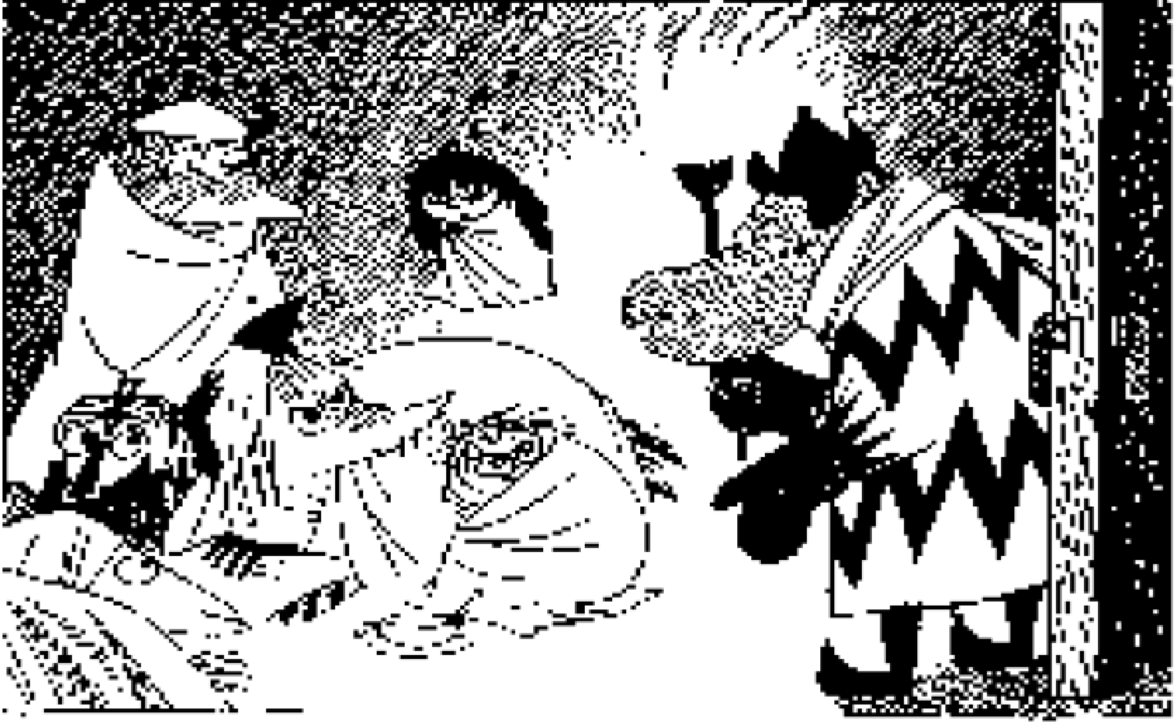
بدلاً من ذلك، خاطب مومين ترول الهيمولين قائلاً: "سأذهب إلى البيت. تزلّج بقدر ما يحلو لك، أما أنا فذاهب إلى البيت."

وبدون أن ينظر إلى أحد زحف عبر نفق الثلج إلى الصالة، ثم إلى مأواه تحت الكرسي الهزّاز.

وإذ تناهى إليه صياح الهيمولين من التلّ، دسّ رأسه داخل الموقد وهمس: "أنا أيضًا لا أحبه."

قذف الجدّ رقاقة سخام، ولعله أراد بذلك أن يظهر تعاطفه. أخذ مومين ترول قطعة فحم واستغرق يرسم بهدوء على ظهر الأريكة. رسم هيمولين واقفًا على رأسه فوق كومة ثلج. وفي قلب الموقد وقفت جرّة كبيرة من مربّى الفراولة.

في الأسبوع التالي، لازمت تو-تيكي الجلوس تحت الجليد بعناد ومعها صنارة الصيد. وتحت السقف الأخضر قربها، جلس صفّ من الضيوف يصطادون أيضًا. أولئك كانوا الضيوف الذين لم



يستلطفوا الهيمولين. وفي بيت آل مومين، تجمّع شيئًا فشيئًا كلّ الذين لم يكترثوا، أو لم يتمكّنوا من الاحتجاج، أو لم يتجاسروا عليه.

درج الهيمولين في فترات الصباح الباكر على حشر رأسه في النافذة المكسورة وهو يحمل مشعلاً. كان يحبّ المشاعل ونار المخيمات. ولكن مَن منّا لا يحبّها؟ إلا أنه وضعها دائمًا في الأمكنة الخطأ، إذا جاز التعبير.

أحبّ الضيوف فترات ما قبل الظهيرة الطويلة والبطيئة نوعًا ما، وكانوا خلالها يفسحون المجال للنهار لينبلج، بالجلوس ومناقشة أحلام الليلة الفائتة، والاستماع إلى مومين ترول وهو يعدّ القهوة في المطبخ.

كان الهيمولين يقاطع كلّ هذا، ويبدأ دائمًا بإخبارهم أن هواء الصالة فاسد، ثم يصف لهم الجوّ البارد اللطيف في الخارج. ثمّ يدردش عمّا يمكن عمله في هذا

اليوم الجديد. بذل جهده ليخترع للجميع سبل تسلية، ولم تتأذّ مشاعره قطّ عندما رفضوا اقتراحاته. كان يكتفي بتربيت ظهورهم ويقول: "طيب، طيب. قريبًا سترون بأمّ أعينكم كم أنا محقّ."

كانت ماي الصغيرة هي الوحيدة التي تبعته أينما ذهب. علّمها بسخاء كلّ شيء عرفه عن التزلج، سعيدًا بما تحرزه من نجاح.

"يا آنسة ماي الصغيرة،" قال الهيمولين. "ولدتِ على الزلاجة. وقريبًا ستهزمينني في لعبتي الخاصة."

"هذا بالضبط ما أنويه،" أجابت ماي الصغيرة بدون مواربة. لكنها ما إن تدربّت تمامًا حتى اختفت في تلالها الخاصة التي لا يعرف أحد عنها شيئًا، ولم يعد لديها أي اهتمام بـ الهيمولين.

مع مرور الوقت، ازداد عدد الضيوف الصيادين تحت الثلج، وفي النهاية لم يتبق أي شيء ملوّن على سفح التلّ سوى قميص الهيمولين الأسود والأصفر.



لم يحبّ الضيوف المشاركة بنشاطات جديدة وشاقّة. راقهم الجلوس معًا يتحدّثون عن الأيام السابقة قبل أن تأتي سيدة الصقيع وينفد قوتهم. تكلّموا عن بيوتهم وكيف أثثوها، ومن هم أقاربهم، وكم كان فظيعًا قدوم الصقيع العظيم الذي تغير معه كلّ شيء.

كانوا يتحلّقون قريبًا من الموقد، يستمع بعضهم إلى بعض، وكلّ ينتظر بصبر أن يحين دوره للكلام.

لاحظ مومين ترول أن الهيمولين قد أُهمِل أكثر فأكثر. "يجب أن أحثّه على الرحيل قبل أن يلاحظ هذا وتتأذّى مشاعره،" فكّر بينه وبين نفسه، "وقبل أن يقضي على المربّى كلّه."

لكن العثور على حجة لبقة وقابلة للتصديق لم يكن سهلاً.

في بعض الأحيان تزلّج الهيمولين نزولاً إلى الشاطئ، وحاول إقناع آسف-أووو بمغادرة بيت الاستحمام. ولكن لا زلاجة الكلاب ولا القفز على الثلج أثارا اهتمام آسف-أووو. فقد دأب على الجلوس في الخارج طوال الليل، ينبح على القمر، وفي النهار أنهكه النعاس ورغب في أن يُترك وحده.

وفي أحد الأيام ثبّت الهيمولين عصي التزلج في الثلج بطريقة حاسمة وقال له مستعطفًا: "أترى، لطالما أحببتُ الكلاب الصغيرة كثيرًا. ولطالما فكّرت في أنني يومًا ما سأحصل على كلب لي يبادلني المودّة. لماذا لا تريد اللعب معي؟"

"لا أدري حقًا،" غمغم آسف-أووو واحمرّ خجلاً. وحالما واتته الفرصة انسلّ راجعًا إلى بيت الاستحمام، وقبع هناك يحلم بالذئاب.

إنها الذئاب التي يريد مشاركتها اللعب. أي سعادة لا متناهية، قال لنفسه، في أن يصطاد معها، أن يتبعها أينما تذهب، أن يفعل كلّ ما تفعله، وكلّ ما تطلب منه أن يفعله. حينها، هو نفسه سيتغيّر، ويصبح حرًا وبرّيًا مثلها تمامًا.

في كلّ ليلة، عندما يتألق القمر، ويغمر نوره خنشار الصقيع على النوافذ، كان آسف-أوو يستيقظ، وينهض ليرهف السمع. وفي كلّ ليلة، كان يرخي قبعته الصوفية على أذنيه وينسلّ خارجًا بهدوء.

سلك الطريق نفسه دائمًا؛ عابرًا منحدر الشاطئ، ميممًا الغابة، ومواصلاً المشي إلى أن تنفرج الغابة وتكشف الجبال المهجورة. هناك لطالما قبع آسف-أووو على الثلج وانتظر عواء الذئاب. كان العواء في بعض الأحيان نائيًا، وفي أحيان أخرى قريبًا، لكنه تقريبًا سمعه في جميع الليالي.

وفي كلّ مرة سمع آسف-أوو العواء، رفع أنفه عاليًا وأجاب.

وقُبيل الصباح، كان يتسلّل عائدًا أدراجه، ويذهب لينام في خزانة بيت الاستحمام.

تأملته تو-تيكي مرّة وقالت: "لن تنساها مطلقًا بهذه الطريقة."

"لا أريد نسيانها، "أجاب آسف-أوو. "بل أريد التفكير فيها دائمًا."

الأغرب من أي شيء آخر، هو أن من أحبّ الهيمولين حقًا

كان المخلوق الأكثر حياءً بينهم جميعًا، ساروبي الفتفوتة. وتاقت



دائمًا إلى سماع عزفه على البوق. لكن يا للأسف! كان الهيمولين ضخمًا جدًا، وفي عجلة من أمره طوال الوقت، ولم يلاحظها قطّ.

مهما بلغت سرعة جريها، خلّفها دائمًا وهو على زلاجتيه على مسافة بعيدة عنه. وكلّما تمكّنت في النهاية من اللحاق بمصدر الموسيقى، توقّف النفير،

وشرع الهيمولين في القيام بشيء آخر.

مرّة أو مرّتين، حاولت ساروبي الفتفوتة أن تفصح له عن إعجابها، لكنها كانت خجولة جدًا ومتحفّظة، ولم يكن الهيمولين قطّ ممّن يتقنون فنّ الإصغاء.

لذا ما قيل في يوم أي شيء مهم.

في ذات ليلة استيقظت ساروبي الفتفوتة في منصّة الغليون المستقرّة على الرفّ الخلفي. لم تكن بالطبع مكانًا مريحًا للنوم بسبب احتوائها على مجموعة من الأزرار والدبابيس التي أضافها آل مومين عبر الأيام إلى مجموعة المقتنيات الرائعة التي تزين الصالة. وكانت ساروبي الفتفوتة أكثر حرصًا على مشاعر الآخرين من أن تمسّ تلك الأشياء.

عندما أفاقت سمعت تو-تيكي و مومين ترول يتحدّثان تحت الكرسي الهزّاز، وعرفت على الفور أنهما يتكلّمان عن محبوبها الهيمولين.

"طفح الكيل،" قال صوت تو-تيكي في العتمة. "لا بدّ بكلّ بساطة أن نستعيد بعض السلام هنا. منذ أن بدأ بوقه يصدح، امتنع سنفوري الموسيقار عن العزف على الناي، ورحل معظم أصدقائي الخفيين. والضيوف يعانون من تعب الأعصاب ونزلات البرد بسبب الجلوس تحت الجليد طوال اليوم. وآسف-أوو يختبئ في الخزانة إلى أن يهبط الظلام. ينبغي أن يطالبه شخص ما بالرحيل."

"قلبي لا يطاوعني،" قال مومين ترول. "فهو مقتنع أننا نحبّه."

“سنضطر إذًا إلى مراوغته،” أعلنت تو-تيكي. “أخبره أن التلال في الجبال المهجورة أعلى وأفضل من تلالنا.”



“لا يوجد في الجبال المهجورة أي مناطق للتزلج،” قال مومين ترول. “لا شيء سوى منحدرات سحيقة وصخور ناتئة، وليس فيها أي ثلج.”

ارتعشت ساروبي الفتفوتة وترقرقت عيناها بالدموع فجأة.

أجابت تو-تيكي: “جماعة الهيمولين يتدبّرون أمورهم دائمًا. وهل تظنّ أنه من الأفضل أن نخبره أننا لا نحبّه؟ فكّر في الأمر.”

“ألا يمكنكِ القيام بِهذا؟” سألها مومين ترول بصوت كئيب.

“إنه يقيم في حديقتك، أليس كذلك؟” قالت تو-تيكي. “استجمع شجاعتك. سيكون هو والجميع أفضل حالاً بعد ذلك.”

ثمّ عمّ الصمت. وما لبثت تو-تيكي أن زحفت إلى الخارج من خلال النافذة.

استلقت ساروبي الفتفوتة تحملق في الظلام. إنهما يريدان ترحيل الهيمولين وبوقه. يريدانه أن يسقط في الهاوية. هناك شيء واحد فقط يمكن فعله. ينبغي تحذيره من الجبال المهجورة، ولكن بلباقة، حتى لا يعرف أن الناس يريدون التخلّص منه.

بقيت ساروبي الفتفوتة مستيقظة طوال الليلة تفكّر. لم يكن رأسها الصغير معتادًا الأفكار المهمّة مثل التي اعتملت فيه، وقُبيل الفجر داهمها النعاس، فنامت طوال فترة تناول قهوة الصباح والغداء. ولا أحد تنبّه إلى وجودها من عدمه.

بعد الفطور تسلّق مومين ترول منحدر التزلّج.

“أهلاً!” صاح الهيمولين. “يسعدني أن أراك هنا!” ما رأيك في أن أعلّمك التفافة بسيطة خفيفة ليس فيها أي خطورة؟”

“لا، ليس اليوم، شكرًا،” قال مومين ترول وهو يشعر أنه وحش حقيقي. “مررتُ للدردشة فقط.”

“عظيم،” هتف الهيمولين. “لاحظتُ أنكم لستم من النوع المهذار هنا، ولا أي واحد منكم. تبدون دائمًا في عجلة من أمركم، تقصدون هذا المكان أو ذاك.”

تفحّصه مومين ترول بنظرة سريعة. لكن لم يبد على الهيمولين سوى الاستئناس والابتهاج المعتادين. فأخذ نفسًا عميقًا وقال: “صدف أنني أعرف أن هناك بعض التلال الرائعة في الجبال المهجورة.”

“صحيح؟!” هتف الهيمولين.

“إي نعم، بديعة!” تابع مومين ترول بعصبية. “هي من أضخم المرتفعات والمنحدرات.”

“لا بدّ من تجربتها،” أعلن الهيمولين. “لكن المنطقة بعيدة. وإذا غادرت إلى الجبال المهجورة قد لا نلتقي ثانية في ربيع هذه المنطقة. وهذا مؤسف، أليس كذلك؟”

“بالطبع،” مالقه مومين ترول ووجهه يحمرّ خجلاً.

“إنما هي فكرة جيدة حقًا،” تابع الهيمولين متفكّرا. “تلك ستكون حياة حقيقية في الهواء الطلق! نار الحطب في الأمسيات، وقمم جبال جديدة للغزو كلّ صباح! وِهاد سحيقة شديدة الانحدار، ثلوج لم يمسّها أحد، هشّة تخشّ تحت الزلاجات المندفعة...”

استغرق الهيمولين في أحلام اليقظة. ثم قال بامتنان بعد برهة: “أنت صديق رائع لتهتم بتزلّجي.”

حدّق فيه مومين ترول، ثم انفجر قائلاً: " لكنها تلال خطرة!"

"ليس بالنسبة لي،" أجاب الهيمولين بهدوء. "أشكرك لتحذيري، أنا أحبّ التلال كثيرًا، وأعلاها هي الفضلى عندي."

"لكنها مستحيلة!" صاح مومين ترول وقد اشتدّ فورانه. "لا شيء هناك سوى جروف عظيمة الانحدار لا يكاد يكسوها أي ثلج. لقد ضللتك، ضللتك! أتذكّر الآن أن أحدهم أخبرني أنه من المستحيل تمامًا التزلّج هناك!"

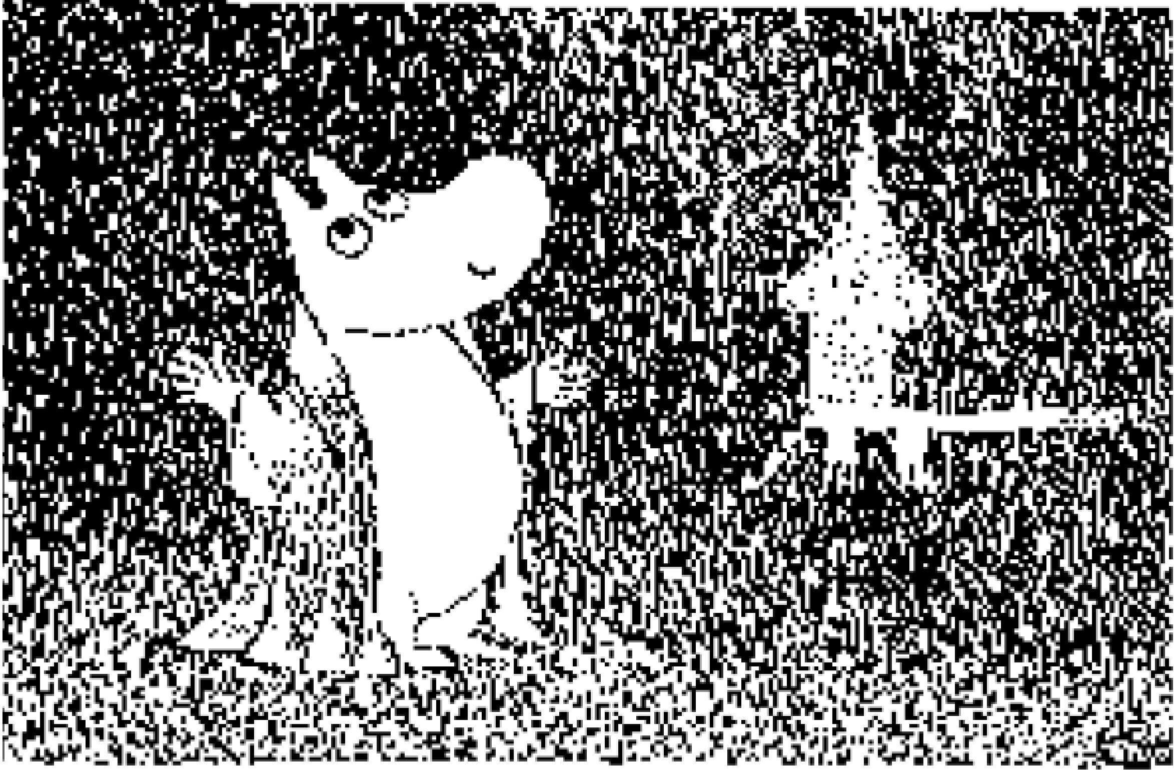
"هل أنت متأكّد؟" سأله الهيمولين متعجبًا.

"صدّقني،" ناشده مومين ترول. "هلا بقيت معنا؟ ثم إنني أفكر في تعلّم التزلج..."

"طيب، لا بأس،" أجاب الهيمولين. "ما دمت تريد مني البقاء حقًا."

بعد محادثته مع الهيمولين، كان صدر مومين ترول ضائقًا إلى درجة أنه لم يرغب في العودة إلى البيت. وارتأى بدلاً من ذلك أن يتجوّل عند الشاطئ، فتمشّى على طوله، ثم انعطف من ناحية بيت الاستحمام.

بينما تابع تقدّمه بدأ الشعور بالارتياح يسري فيه شيئًا فشيئًا. إلى أن عاوده الابتهاج تقريبًا، فانبرى يصفّر ويرفس كتلة ثلج ببراعة فائقة على طول الطريق. ثم أخذ الثلج يتساقط ببطء.



كانت تلك أول مرّة يتساقط فيها الثلج منذ ما قبل مطلع السنة الجديدة، وفوجئ مومين ترول كثيرًا.

رقاقة تلو رقاقة حطّت على أنفه الدافئ وذابت. التقط بعضًا منها بكفّه مبديًا إعجابه بها ولو للحظة عابرة. رنا إلى السماء وراقب الثلج يتساقط ويتساقط عليه، برقّة وخفة تفوقان رقّة وخفّة الطيور حينما تهبط.

"أوه، هذا هو الأمر إذًا؟" فكّر مومين ترول. "وأنا الذي اعتقدتُ أنه يتشكّل على الأرض."

كان الهواء أكثر اعتدالاً. ولا شيء على مرمى البصر سوى الثلج المتساقط. أُخِذ مومين ترول بالحماسة نفسها التي يشعر بها عندما يخوض البحر سابحًا.

تخلّص من رداء الاستحمام وألقى نفسه بتهوّر فوق كومة ثلج.

“هذا هو الشتاء أيضًا!” فكّر. “يمكنك حتى أن تحبّه!”

استيقظت ساروبي الفتفوتة عند الغسق يعتمل فيها شعور قلِق من أنّها قد تأخّرت عن شيء ما. ثم ما لبثت أن تذكّرت الهيمولين.

قفزت نازلة من صندوق الأدراج نحو كرسي أولاً، ثم إلى الأرض. كانت الصالة خالية من الناس. فقد ذهب الجميع إلى بيت الاستحمام لتناول العشاء. تسلّقت ساروبي الفتفوتة إلى النافذة، وبغصّة في حلقها زحفت خلال النفق.

لم يكن ثمّة قمر في السماء، ولا أضواء شمالية يمكن رؤيتها. لا شيء سوى ثلج متساقط بكثافة علق بوجهها وثوبها وعرقل خطواتها. تلمّست طريقها إلى كوخ الإسكيمو ونظرت داخله. كان مظلمًا وشاغرًا.

استولى الرعب على ساروبي الفتفوتة، وبدلاً من الانتظار عند كوخ الإسكيمو انطلقت تخوض الثلج المتطاير.

نادت محبوبها الهيمولين لكن ذلك كان مثل محاولة النداء بين لحف محشوة بريش البطّ. وسرعان ما محا الثلج أي أثر كادت قدماها تخلّفانه على الثلج.

في وقت لاحق من المساء توقّف تساقط الثلج.

بدا ذلك كما لو أن ستارة رقيقة قد سُحبت، وعاد المشهد



جليًا فوق الثلج. أما في المدى البعيد، فكان لا يزال هناك جدار أزرق داكن من الغيوم، يحجب الموضع الذي غربت فيه الشمس.

راقب مومين ترول الجوّ الجديد الهائج يندفع إلى الأمام. كلحت السماء فجأة مرّة أخرى. وتوقّع مومين ترول الذي لم يشهد مطلقًا عاصفة ثلجية، حدوث عاصفة رعدية، فثبّت نفسه جيدًا بانتظار أول هدير للبرق الذي ظنّ أنه على وشك الانطلاق.

لكن لا رعد هدر، ولا برق ومض.

بدلاً من ذلك، انبثقت دوامة ثلج صغيرة من قمّة إحدى صخور الشاطئ المكللة بالبياض.

عصفت الريح القلقة بسرعة ذهابًا وإيابًا فوق الثلج، وهمهمت في الغابة عند الشاطئ. أما الجدار الأزرق الداكن فارتفع نحو السماء مؤذنًا للريح كي يشتدّ عصفها.

فجأة، أصبح الأمر كما لو أن بابًا هائلاً قد فُتح على العالم، تثاءبت الظلمة، وتغشّى كلّ شيء بالثلج الرطب المتطاير.

في هذه المرة لم يأت الثلج من السماء، بل اندفع على طول الأرض، كان يعوي ويتدافع كأنه شيء حيّ.

فقد مومين ترول توازنه ووقع. وفي غضون لحظة امتلأت أذناه بالثلج واستولى عليه الخوف.

ضاع الزمن والعالم كلّه. وتلاشى كلّ ما كان بمقدوره أن يشعر به أو ينظر إليه. لا شيء تبقّى سوى دوامة مسحورة من الظلمة الرطبة المتراقصة.

بالطبع كان بإمكان أي مخلوق حكيم إخباره أن هذه هي لحظة ولادة الربيع الطويل.

إنما لم يصدف وجود أي شخص حكيم آخر عند الشاطئ، فلا أحد كان هناك سوى مومين مضطرب يزحف على قوائمه الأربع، مغالبًا الريح باتجاه معكوس تمامًا.

زحف وزحف، وتجمّع الثلج فوق عينيه، وشكّل كتلة صغيرة على أنفه. وازدادت قناعة مومين ترول في أن هذه حيلة قرّر الشتاء لعبها عليه، هادفًا من ذلك إعلامه أنه أعجز من أن يتحمّله.

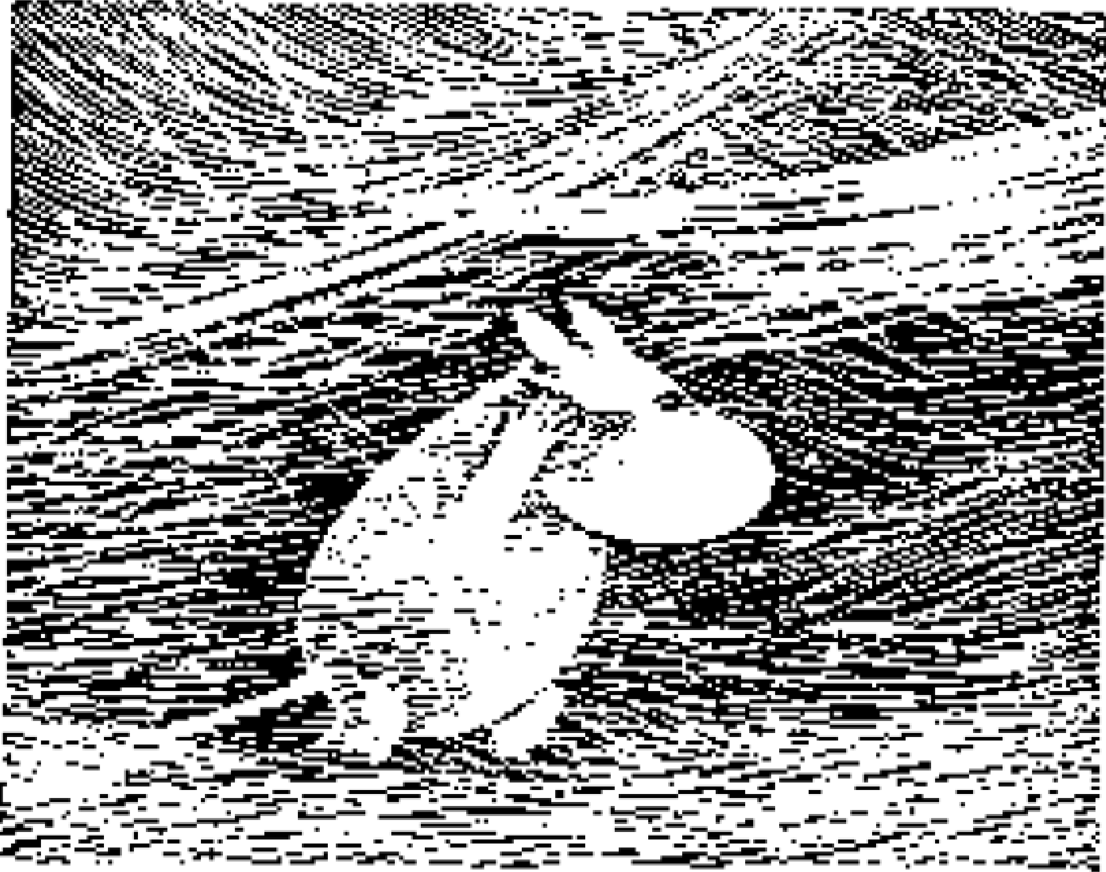
خدعه أولاً بستارته الجميلة من ندف الثلج المتساقطة ببطء، ثم رشقه بالثلج الجميل في اللحظة ذاتها التي ظنّ خلالها أنه قد بدأ يحبّ الشتاء.

شيئًا فشيئًا بدأ الغضب ينتاب مومين ترول.

اعتدل واقفًا ليصيح في وجه العاصفة. قاوم الثلج ونشج قليلاً بما أنه ليس هناك أحد في الجوار يمكنه سماعه.

ثمّ تهالك.

أدار ظهره للعاصفة الثلجية وتوقّف عن مقاومتها.



حينذاك دفعته الريح نحو دوامة الثلج، فشعر بالخفّة كما لو أنه يطير. وفي تلك اللحظة فقط لاحظ مومين ترول أن الريح كانت دافئة.

"أنا لا شيء سوى هواء وريح، أنا جزء من العاصفة،" فكّر مومين ترول واستسلم. "هذا تقريبًا مثل ما حدث في الصيف الماضي. في البداية تقاوم الأمواج، ثم تستدير وتركبها، مبحرًا معها مثل فلينة وسط أقواس قزح الرغوة الصغيرة، ثم تبلغ اليابسة وتحطّ على الرمل ضاحكًا وخائفًا قليلاً."

فتح مومين ترول ذراعيه وطار.

"أفزعني يا شتاء إذا استطعت،" فكّر بابتهاج. "أستطيع استيعابك الآن. لستَ أسوأ من أي شيء آخر عندما يعرفك المرء جيدًا. ما عاد بإمكانك خداعي."

راقصه الشتاء على طول الشاطئ الثلجي، حتّى تعثّر بالمنصّة المجللة بالثلج وطُمر أنفه في كومة منه. عندما رفع رأسه أبصر ضوءًا خافتًا مطمئِنًا. كانت تلك نافذة بيت الاستحمام.

"أوه، نجوت،" قال مومين ترول لنفسه بشيء من الخيبة. "من المؤسف أن الأشياء المثيرة تتوقّف فجأة عندما لا تعود خائفًا منها، وتصبح راغبًا في الحصول على قليل من المرح."

حينما فتح باب بيت الاستحمام اندفعت إلى الخارج، حيث العاصفة الثلجية، نفحة بخار هواء دافئ، وبصعوبة رأى مومين ترول أن المكان مكتظّ بالناس.

"هذا واحد منهم!" صاح شخص ما.

“من أيضًا؟” سأل مومين ترول وهو يجفّف وجهه.

“ضاعت ساروبي الفتفوتة في العاصفة الثلجية،” قالت تو-تيكي برزانة.

أقبل كوب من الشراب الساخن ينْزلق في الهواء.

“شكرًا،” قال مومين ترول للسنفور الخفي. ثم تابع: “لكنني ما عرفت قطّ أن ساروبي الفتفوتة تخرج.”

“نحن أيضًا لا نفهم ماذا حدث،” قال أكبر جماعة الهومبر سنًا. “ولا جدوى من البحث عنها قبل توقّف العاصفة الثلجية. يمكن أن تكون في أي مكان، ولا ريب أنّها محاصرة بالثلج.”

“وأين الهيمولين؟” سأل مومين ترول.

“خرج في عملية بحث،” أجابت تو-تيكي. وأضافت مع ابتسامة طفيفة: “يبدو أنكما تحادثتما عن الجبال المهجورة.”

“إي، ماذا عنها؟” استوضح مومين ترول بحدّة .

اتسعت ابتسامة تو-تيكي. “لديك موهبة إقناع قوية،” قالت. “أخبرنا الهيمولين أن مناطق التزلّج في الجبال المهجورة بائسة بكلّ بساطة. وأنه سعيد جدًا لأننا نحبّه كثيرًا.”

“قصدت فقط أن...” بدأ مومين ترول.

“هوّن عليك،” قاطعته تو-تيكي. “فنحن على ما يبدو قد بدأنا نستلطف الهيمولين.”



ربما لم يكن الهيمولين مرهف الإحساس، وربما لم يسبر دائمًا أغوار الأمور التي يفكّر فيها الناس من حوله، لكن لا ريب أن حاسّته في تعقّب الأثر كانت أقوى بكثير من حاسّة آسف-أوو. (أضف إلى ذلك أن حاسّة آسف-أوو أفسدتها الأفكار العاطفية في الوقت الحاضر.)

وجد الهيمولين مضربي تنس قديمين في العلية، وصنع منهما حذاء ثلج. وكان في تلك اللحظة يخوض طريقه بتؤدة وسط العاصفة الثلجية، وخطمه قريب من الأرض، محاولاً التقاط نفحة من الرائحة الواهية التي تعود لأصغر مخلوقة رآها في حياته.

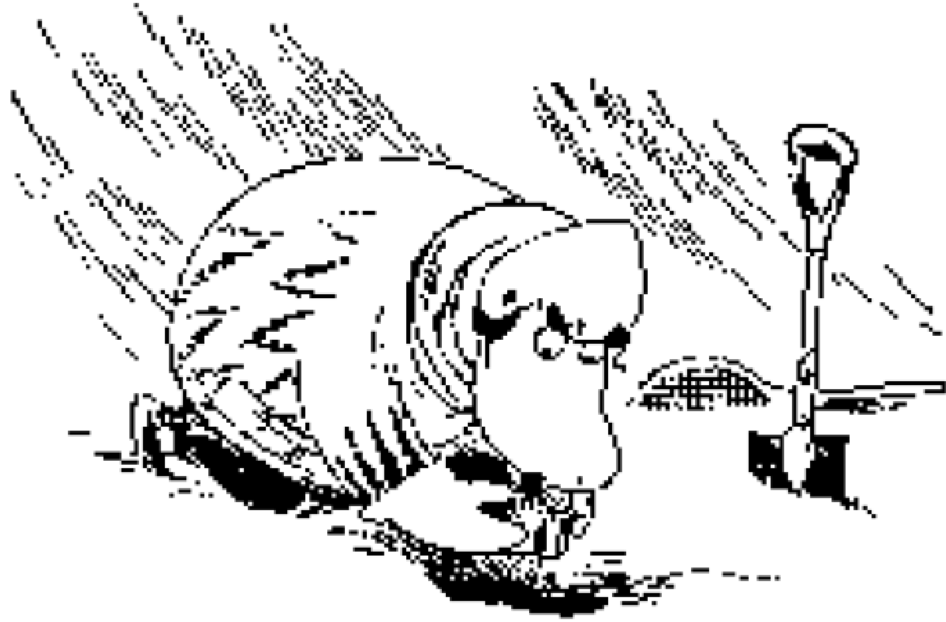
مرّ في طريقه على كوخ الإسكيمو، وشمّ تلك الرائحة هناك.

"عجبًا، لقد بحثت الصغيرة الفتفوتة عني هنا،" فكّر الهيمولين بقلب صافٍ. لماذا يا ترى... وفجأة عاودته ذكرى ضبابية عن ساروبي الفتفوتة وهي تحاول إخباره بشيء ما في بعض الأحيان، ولكن حياءها الجمّ حال دائمًا بينها وبين أن تفعل ذلك بوضوح.

وفيما شقّ دربه وسط العاصفة الثلجية تراءت له الصور واحدة تلو أخرى بعين خياله: "الصغيرة تنتظره أسفل التلّ.. الصغيرة تتبع أثر زلاجتيه.. الصغيرة تشمّ البوق.." وفكّر الهيمولين بدهشة: "أرى أنني كنت جلفًا معها!" بالطبع لم يشعر بأي وخز في ضميره لأن جماعة الهيمولين نادرًا ما يحدث لهم هذا. لكن اهتمامه بالعثور على ساروبي الفتفوتة ازداد قليلاً.

نزل على ركبتيه وتقدّم زاحفًا حتى لا يفقد أثرها. ومضت رائحتها في طريق متعرّج ودائري، تمامًا كما تفعل المخلوقات الصغيرة عندما يعمي الخوف بصيرتها. تبيّن له أن الفتفوتة الصغيرة قد نزلت إلى الجسر مرّة واقتربت من الحافّة الخطرة. ثم عادت الرائحة وصعدت إلى مسافة قصيرة من التلّ، واختفت فجأة.

وقف الهيمولين يفكّر لبرهة، وهذا شيء لم يكن فيه أي جهد كبير.



ثمّ بدأ الحفر. حفر لفترة طويلة.

وأخيرًا عثر على شيء صغير جدًا ودافئ.

"لا تخافي،" قال الهيمولين. "هذا أنا."

دسّ المخلوقة الصغيرة بين قميصه الخارجي وقميصه الداخلي، نهض، وبدأ يخوض الطريق عائدًا إلى بيت الاستحمام.

في الحقيقة، بينما هو في طريق العودة، نسي تقريبًا أمر ساروبي الفتفوتة، وفكّر فقط في كوب من الشراب الساخن.

كان اليوم التالي يوم الأحد، وكانت العاصفة قد هدأت وأصبح الجوّ دافئًا وغائمًا، والثلج أغرق الناس إلى آذانهم.

بدا الوادي أغرب من سطح القمر. كانت أكوام الثلج على هيئة كتل مستديرة هائلة، أو قمم جميلة التقوّس ذات نتوءات حادّة كالسكاكين. وفي الغابة اعتمرت الأغصان كلّها قبّعات ثلج ضخمة. أما أهمّ من ذلك فكان منظر الأشجار التي لاحت مثل قوالب معجنات صنعها حلواني واسع الخيال.

وللمرّة الأولى احتشد الضيوف في الهواء الطلق، ونظّموا معركة تراشق بِكرات الثلج. كان المربّى قد بدأ ينفد، وكان قد أمدّهم كلّهم بطاقات جيدة.

جلس الهيمولين على سطح مخزن الخشب ونفخ بوقه و ساروبي الفتفوتة السعيدة إلى جواره. عزف مقطوعة "ملوك الهيمولين"، وتوّج قطعته المفضّلة هذه بنجاح مميز. ثم التفت إلى مومين ترول وقال: "عِدني ألا تغضب مني، فقد قرّرت الذهاب إلى الجبال المهجورة مهما كلّف الأمر. سأعود في الشتاء القادم وأعلّمك حينها التزلّج."

"لكنني أخبرتك أن.." بدأ مومين ترول بقلق.

"أعرف، أعرف،" قاطعه الهيمولين. "كنتَ محقًّا تمامًا. لكن لا بدّ أن التلال أصبحت رائعة الآن بعد العاصفة الثلجية. تخيّل فقط، أي هواء عذب سأجد هناك!"

نظر مومين ترول إلى تو-تيكي.

هزّت رأسها موافقة. وعنت بذلك: "دعه يذهب. سُويت الأمور الآن، وكلّ شيء يسير نحو الأفضل."

دخل مومين ترول البيت، وفتح درفة الموقد الخزفي. أرسل أولاً إشارة خافتة إلى جدّه، شيئًا مثل: تي تي يو، تي تي يو. لكن الجدّ لم يردّ.

"لقد أهملته،" فكّر مومين ترول. "بيد أن ما يحدث الآن هو في الحقيقة أهم ممّا حدث قبل ألف سنة."



حمل جرّة مربّى الفراولة الكبيرة. ثم تناول قطعة فحم وكتب على الغطاء الورقي "إلى صديقي العزيز الهيمولين."

اضطر آسف-أوو في ذلك المساء إلى المجاهدة في الثلج ساعة كاملة، قبل أن يصل أخيرًا إلى وجار العواء. وبالرغم من أن فسحة الوجار ازدادت اتساعًا مع كلّ مرّة قصده، وقبع فيه بشوق عارم، وجده الآن محجوبًا بكومة من الثلج.

كانت الجبال المهجورة ملتحفة بالثلج، ومشرقة ببياض بديع. لم تكن الليلة مقمرة، إلا أن بريق النجوم بدا استثنائيًا، ومن بعيد تصاعد صدى قعقعة انهيار جليدي. كمن آسف=أوو ينتظر ظهور الذئاب.

وفي تلك الليلة انتظر وقتًا طويلاً.

تخيّل الذئاب تجري فوق الحقول الثلجية، رمادية وضخمة وقوية، ثم تتوقّف فجأة عندما تسمع نداءه من طرف الغابة.

وقد تقول حينها: "اسمعوا، ثمّة رفيق هناك. ابن عم لنا يمكننا إنشاء صداقة معه.."

أثارت هذه الفكرة آسف-أوو، وحمله خياله بعيدًا. وفيما هو ينتظر، شغل نفسه بتطريز أحلام يقظته إلى أن ظهر القطيع كلّه فوق أقرب تلّ. ثم أقبلت الذئاب نحوه.. وهزّت ذيولها.. حينها تذكّر آسف-أوو أن الذئاب الأصيلة لا تهزّ ذيولها أبدًا.

لكن تلك لم تكن بالمسألة المهمة. فالذئاب جاءت إليه تعدو، لأنّها تعرفه من قبل.. وقد قرّرت أن تصطحبه معها..

أُخِذ آسف-أوو بحلم يقظته الحيوي. رفع رأسه تجاه النجوم ونبح!

والذئاب أجابته.

دنت منه كثيرًا، فأصابه الهلع. حاول بسذاجة أن يتوارى في الثلج. كانت الأعين المتّقدة تحيط به وهي تقدح شررًا.

كفّت الذئاب عن العواء، وشكّلت حلقة حوله، وبدأت تطبق عليه ببطء.



هزّ آسف-أوو ذيله وغمغم، لكن أحدًا لم يرد عليه. نزع طاقيته الصوفية ورماها في الهواء ليبيّن أنه يرغب في اللعب، وأنه ليس مؤذيًا على الإطلاق.

لكن الذئاب لم تحاول حتّى النظر إلى القبعة. وفجأة أدرك آسف-أوو أنه ارتكب خطأً فادحًا، وأن ليس ثمّة رابطة أخوية بينه وبينها، وأن من المستحيل على المرء أن يمرح معها.

معها، يمكن أن يُؤكل المرء فقط. وقد يتسنّى له شيء من الوقت ليندم على كونه قد تصرّف كالحمار. ثبّت ذيله الذي واصل البصبصة بدافع من العادة المحضّ. وفكّر: "واحسرتاه! كان بوسعي أن أنال كفايتي من النوم في كلّ تلك الليالي السابقة، بدلاً من جلوسي هنا أتحرّق شوقًا وأتصرّف بسخافة.."

بدأت الذئاب تلحف في تضييق الخناق عليه.

وفي تلك اللحظة تمامًا جلجل دوي بوق في الغابة. كان دوي بوق نحاسي صاعق أسقط العديد من رقاقات الثلج التي على الأغصان، وطرف العيون الصفراء. وفي غضون ثانية زال الخطر، وبقي آسف-أوو وحده قرب طاقيته الصوفية. وما لبث أن أطلّ الهيمولين من أعلى التلّ، يجرجر قدميه اللتين تنتعلان حذاء الثلج الضخم.



“أنت قابع هنا أيها الكلب الصغير؟” قال الهيمولين. “هل انتظرتني طويلاً؟”

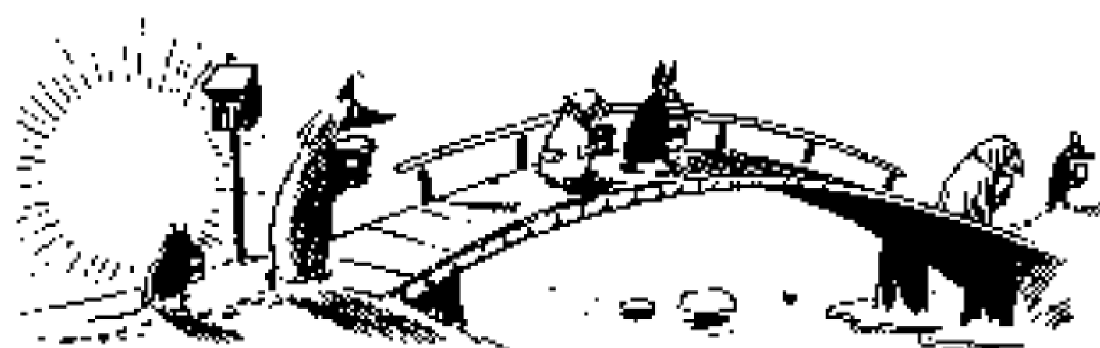
“لا،” قال آسف-أوو بدون مواربة.

“ستتشكل قشرة رقيقة من الجليد على الثلج الليلة،” هتف الهيمولين بسعادة. “وعندما نصعد إلى الجبال المهجورة سنتشارك بما لديّ من حليب دافئ في الترمس.”

ثم مضى الهيمولين يجرجر قدميه بدون أن ينظر إلى الوراء.

وتبعه آسف-أوو الذي رأى أن هذا أفضل شيء يمكن أن يفعله.





الفصل السادس
مطلع الربيع

جلبت العاصفة الثلجية الربيعية الأولى التغيير والقلق إلى الوادي. ازداد حنين الضيوف إلى ديارهم أكثر من أي وقت مضى. وبدأوا في العودة الواحد تلو الآخر. قاموا بذلك في الليل عادة، عندما تغدو قشرة الجليد ملساء، ويصبح السير عليها سهلاً. صنع بعض منهم لأنفسهم أحذية تزلّج، وحمل كلّ واحد منهم جرّة مربّى صغيرة واحدة على الأقلّ. وتقاسم آخر الراحلين جرّة مربّى التوت البرّي.

وعندما مضى آخر الضيوف على الجسر، كان قبو المربّى خاويًا على عروشه.

لم يبق غيرنا الآن، أعلنت تو تيكي. "أنت وأنا وماي الصغيرة. أما المخلوقات الغامضة فعادت كلّها إلى الاختباء حتى الشتاء القادم."

"لم ألمح مطلقًا صاحب القرون الفضيّة مرّة ثانية،" قال مومين ترول. "ولا تلك الكائنات الصغيرة النطاطة التي أقبلت تكرّ على الجليد. ولا حتى ذلك الأسود الذي لديه عينان كبيرتان جدًا، والذي حلّق فوق المشعلة."

"إنّهم من مخلوقات الشتاء،" أوضحت تو-تيكي. "ألا تشعر بقدوم الربيع؟"

هزّ مومين ترول رأسه نافيًا. "ما زال الوقت مبكرًا. لا أستطيع الإحساس به بعد."

لكن تو-تيكي قلبت قبّعتها الحمراء، بحيث جعلت باطنها ظاهرًا. كان باطن القبعة بلون أزرق باهت. "هذا ما أفعله دائمًا عندما يشمّ أنفي الربيع،" قالت، ثم جلست على غطاء البئر وغنّت:

أنا تو-تيكي

وها قد قلبت طاقيتي!

أنا تو-تيكي

وأنفي يشمّ الريح الدافئة!

عواصف الربيع الثلجية العظيمة تقترب!

انهيارات الجليد الهائلة تزأر!

الأرض العظيمة تدور

وكلّ شيء قد تغير هذه الأيام

حتى ثياب الناس الشتوية.

في ذات مساء، ومومين ترول في طريق العودة إلى داره من بيت الاستحمام، توقّف فجأة ونصب أذنيه.

كانت ليلة دافئة غائمة مفعمة بالحركة. وكان قد مضى على الأشجار وقت طويل منذ أن نفضت الثلج عنها، واستطاع سماع أغصانها في الظلام وهي تحفّ.

بعيدًا من ناحية الجنوب جاءت هبّة ريح قوية. التقطت أذناه صفيرها الذي قطع الغابة ومرّ به متّجهًا نحو الوادي.

تساقطت من الأشجار بضع قطرات ماء على الثلج القاتم، ورفع مومين ترول أنفه ليشمّ الهواء.

لا ريب أن ذلك إنما هو هبّة واهنة من هبّات الأرض الجرداء، فكّر، ثم تابع المشي مدركًا أن تو-تيكي كانت محقّة؛ فالربيع قادم حقًا.

للمرّة الأولى منذ أسابيع عديدة، مضى مومين ترول ونظر بإمعان إلى أبيه وأمه. وأدنى القنديل من آنسة سنورك وتأمّلها مطولاً. كان زغب شعرها يلمع لمعانًا لطيفًا. وبدت رقيقة جدًا. وحالما تستيقظ ستسارع إلى الخزانة، وتبحث عن قبّعتها الربيعية الخضراء.

وضع مومين ترول القنديل على رفّ الموقد وتأمّل الصالة. كان منظرًا مروعًا بالفعل؛ معظم الأشياء وُزّعت على الناس، أو أُقرِضت، أو أخذها بكلّ بساطة ضيف طائش.

أما الأشياء المتبقّية فتفرّقت في فوضى يتعذّر وصفها. صحون وسخة مكدّسة في مغسلة المطبخ. موقد التدفئة المركزية في القبو على وشك أن يخمد بعد نفاد الفحم. قبو المربّى فارغ. ولوح زجاج إحدى النوافذ مكسور.

لبث مومين ترول ساكنًا. تناهى إليه صوت الثلج الرطب وهو يبدأ بالانزلاق عن السقف فوقه. ثم حطّ على الأرض بخبطة عنيفة، وفجأة، صار بوسعه أن يرى رقعة من سماء الليل الغائمة، من الجزء العلوي للنافذة الجنوبية.

مضى مومين ترول إلى الباب الرئيسي وتفحّصه. ألم يشعر أنه تزحزح ولو قليلاً؟ ثبّت قدمه على السجادة جيدًا، واستعان بجميع عضلاته.

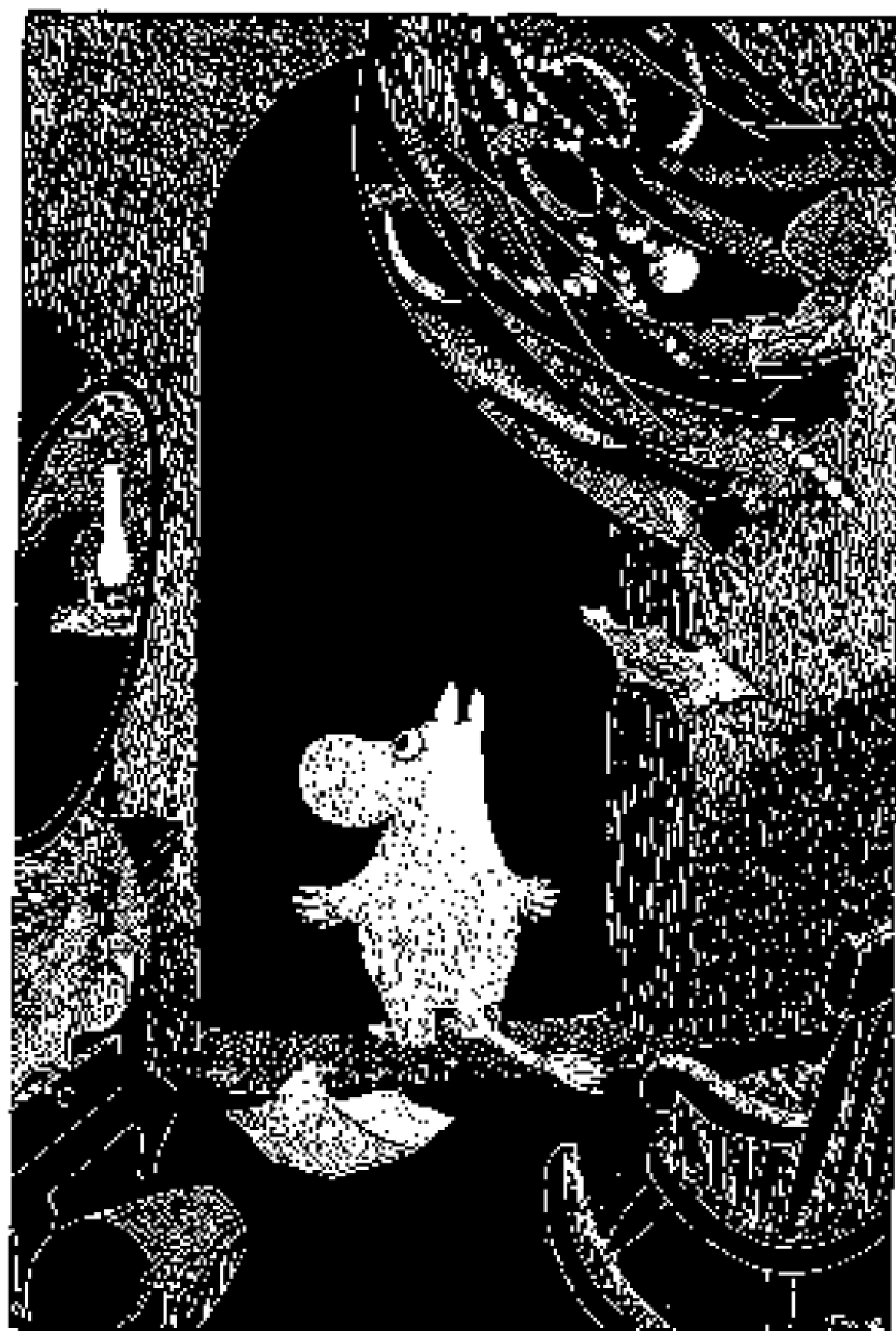
ببطء، ببطء بالغ، فُرج الباب دافعًا أمامه كتلة كبيرة من الثلج.

لم يستسلم مومين ترول إلا بعد أن فتح الباب على مصراعيه في وجه الليل.

حينئذ هبّت الريح القوية في الصالة مباشرة. نفضت الغبار عن الشاش حول الثريا، ونفخت الرماد في الموقد الخزفي. زعزعت ملصقات الجدران، فسقطت إحداها أرضًا وحملتها الريح بعيدًا.

شاعت في الغرفة رائحة الليل وأريج التنّوب، وقال مومين ترول لنفسه: "جيّد، يجب أن تُهوى العائلة أحيانًا." ثم خرج إلى العتبة وحملق في العتمة الرطبة.

"لديّ كلّ شيء الآن،" فكّر مومين ترول. "إنني أمتلك السنة كلّها، بما في ذلك الشتاء. أنا أول مومين يشهد السنة بأكملها."





في الحقيقة، يجدر بحكاية الشتاء هذه أن تتوقّف هنا. فكلّ هذه الأمور المتعلّقة بمطلع الربيع والريح تتدافع في أرجاء الصالة تشكّل نهاية رائعة. وبعدئذ يمكن المرء أن يفكّر كما يحلو له بما حدث لاحقًا. لولا أن هذا لن يكون صائبًا.

فالمرء الآن، ليس بمقدوره أن يعرف ما لدى ماما مومين لتقوله عندما تستيقظ. ولن يعرف ما إذا سُمح للجدّ بالاستقرار إلى الأبد في الموقد الخزفي. ولا ما إذا عاد سنفكين ثانية قبل أن تنتهي الحكاية. ولا ما إذا استطاعت بنت الميمبل تدبّر أمرها بدون الصندوق الكرتوني. ولا ما إذا كانت تو-تيكي ستغادر بيت الاستحمام، بعد أن عاد ثانية بيتًا للاستحمام. ولا الكثير من الأشياء الأخرى.

لذلك أرى أنه من الأفضل متابعة الحكاية.

خصوصًا لأن انهيار الجليد حدث مهمّ وأكثر إثارة من أن يُغفل ذكره.

أقبل الآن الشهر الغامض بأيامه الرائقة المشمسة، والكتل الجليدية الذائبة، والرياح، والسماء المتقلّبة، وكذلك بلياليه الصقيعية ذات الأديم الجليدي

والقمر الباهر. وخلاله، استكشف مومين ترول كلّ بقعة في واديه، منتشيًا بالأمل والزهو.

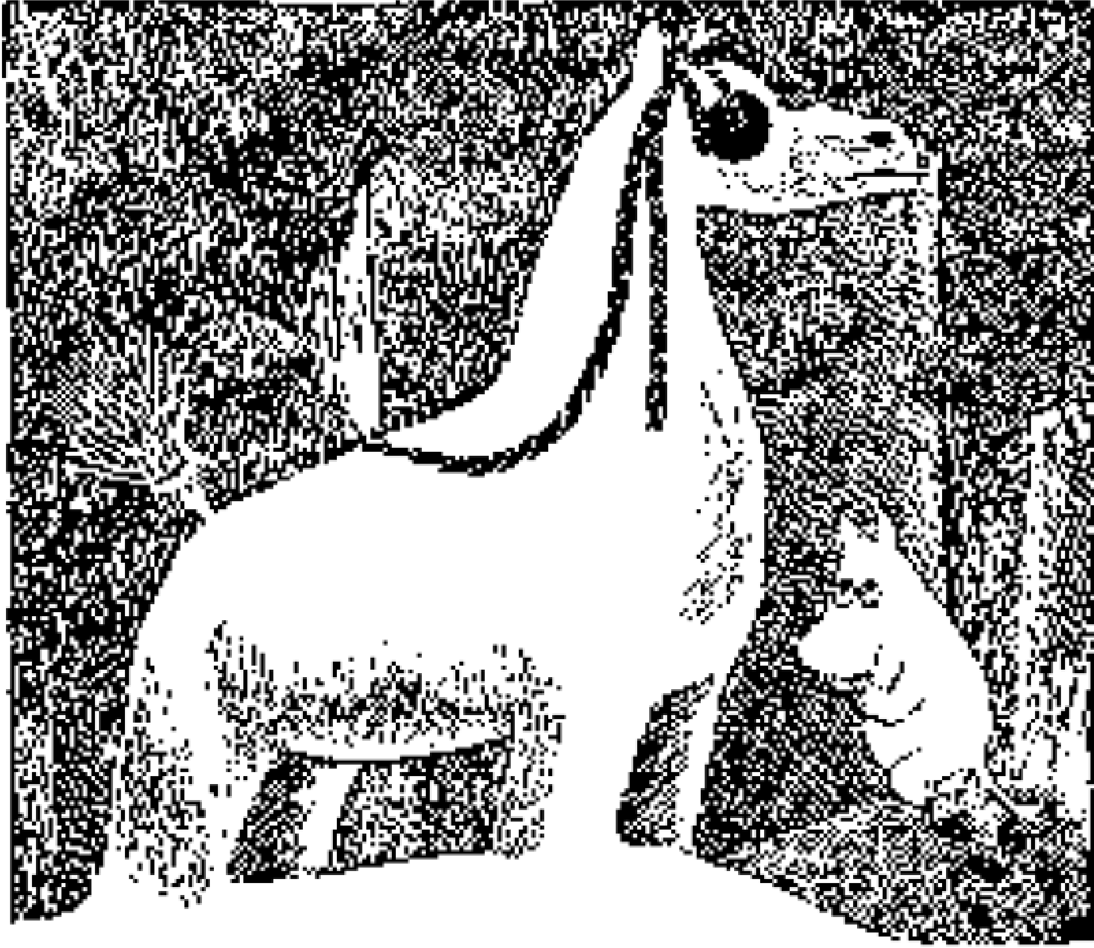
ثم جاء الربيع، ولكن ليس كما تخيّل قدومه مطلقًا. كان قد ظنّ أن الربيع سينقذه فورًا من العالم الغريب العدائي، ثم اكتشف أنه ليس إلا امتدادًا لخبراته الجديدة، تلك التي سبق له أن سبرها وامتلكها.

أمِل بالحصول على ربيع طويل، حتى يحتفظ بمشاعر السعادة المنشودة أطول مدّة ممكنة. ومع مطلع كلّ يوم جديد، روّعته فكرة حدوث ثاني أهمّ شيء يمكن أن يحدث: أن يستيقظ فرد من العائلة. ولذلك حرص على التحرّك في البيت بحذر، وحاول ألا يصطدم بالأشياء في الصالة. وباكرًا في الصباح دأب على مغادرة البيت إلى الوادي ليستنشق عبير الروائح الجديدة، وليتأمل المستجدات التي طرأت منذ اليوم السابق.

كانت رقعة الأرض عند الحائط الجنوبي لسقيفة الخشب تتسع باستمرار وتتكشف. وبدأت ظلال باهتة الحمرة تلوح على أشجار القضبان، ولكن استشفافها تعذّر إلا من على مسافة. وأخذت أشعة الشمس تزداد تغلغلاً في أعماق الكتل الثلجية مباشرة، جاعلة إياها هشّة ومموهة كأنّها أقراص عسل. أما لون الجليد فتدرّج نحو الاكفهرار شيئًا فشيئًا، كما لو أن البحر قد بدأ يمور تحته.

واصلت ماي الصغيرة ممارسة التزلّج في أماكن مختلفة. كانت قد استبدلت أغطية الصفيح بسكاكين المطبخ، وتدبّرت أمر تثبيت حافاتها تحت جزمتها.

وبين حين وآخر صادف مومين ترول في طريقه شكلاً لولبيًا



أحدثته على الثلج، ولكنه لم يقابلها إلا فيما ندر. فهي لطالما امتازت بموهبة الاستمتاع بوقتها وحدها، ومهما كان ما تفكّر فيه عن الربيع، لم تشعر بحاجة لأن تتحدّث عنه.

أما تو-تيكي فشُغلت بتنظيفات الربيع في بيت الاستحمام.

لمّعت ألواح الزجاج الخضراء والحمراء كلّها استعدادًا للصيف. نشرت أردية الاستحمام تحت الشمس، وحاولت إصلاح دمية الهيمولين المطاطية.

“سيعود بيت الاستحمام بيتًا للاستحمام مرة ثانية،” قالت. “مع الصيف الحارّ الأخضر، وأنت منبطح على بطنك على ألواح المنصّة الدافئة، تستمع إلى الأمواج تقرقر وتقرقر..”

“لماذا لم تتحدّثي هكذا في الشتاء؟” قال مومين ترول.. “لو فعلتِ، لوجدتُ في ذلك راحة. أتذكرين، قلتُ مرة: كان هنا الكثير من التفاح. وأجبتِ يومها: لكن لدينا الآن الكثير من الثلج. ألم تدركي حينها أنني أعاني من الكآبة؟”

هزّت تو-تيكي كتفيها. “على المرء أن يكتشف كلّ شيء بنفسه، ويتجاوز التجارب وحده.”

كانت أشعة الشمس تسطع أكثر فأكثر كلّ يوم.



جوّفت السطح الجليدي، مشكّلة فيه فجوات صغيرة وقنوات. وصار بإمكان المرء أن يرى كيف بدأ البحر يصطخب في الأسفل.

وفيما وراء الأفق، واصلت العواصف العاتية تجوّلها ذهابًا وإيابًا.

كان مومين ترول يستلقي صاحيًا لوقت طويل في الليل، يستمع إلى صرير جدران البيت النائم وقرقعتها.

أما جدّه الأعلى فبقي هادئًا جدًا. كان قد أغلق غطاء الموقد، وربما عاد وتقاعد ألف سنة إلى الوراء. وبالنسبة إلى حبل الصمّام المنظِم فقد اختفى في الزاوية المظلمة بين الموقد والحائط، بما في ذلك شرابته وتطريزه وكلّ شيء.

"لقد راقه هذا،" فكّر مومين ترول الذي كفّ عن النوم في سلّة الصوف وعاد إلى سريره. كانت أشعة الشمس تزداد توغلاً في الصالة مع مطلع كلّ صباح، متفحّصة بحرج أنسجة العناكب وكُريات الغبار. ودأب مومين ترول على حمل أكبر كرات الغبار إلى الشرفة؛ تلك التي غدت مستديرة ولا يمكن إغفالها. لكنه ترك الكُريات الصغيرة تتدحرج في أنحاء الصالة كما يحلو لها.

كانت الأرض تحت النافذة الجنوبية تغدو دافئة في فترات الأصيل. وبدت ناتئة قليلاً بسبب رؤوس النباتات المنبثقة من البُصيلات البُنيّة ومن خيوط الجذور الدقيقة التي امتصّت الثلج الذائب بلهفة.

ثم، في ذات يوم عاصف، قبل الغسق بقليل، تعالى دويّ عظيم وجليل جاء من جهة البحر.

"حسنًا،" قالت تو-تيكي وهي تضع فنجان الشاي جانبًا. "بدأت مدافع الربيع تقصف."

ارتفع الجليد على نحو مفاجئ، وزاد دوي الهدير المُرعِد.

هرع مومين ترول خارج بيت الاستحمام، ليصيخ السمع في خضم الرياح الدافئة.

“انظر، إن البحر يظهر،” هتفت تو-تيكي من ورائه.

من بعيد، كان حاجز من الأمواج البيضاء يهسهس، وكانت الأمواج الغاضبة والجائعة تقضم جليد الشتاء قطعة تلو قطعة.

شقّ صدع داكن طريقه مندفعًا اندفاعًا على طول السطح الجليدي، تذبذب جيئة وذهابًا، ثم تعب واختفى. هاج البحر ثانية، وتشكّلت صدوع جديدة، وبدأت تتسع.

“أعرف شخصًا يجدر به أن يسارع في العودة إلى البيت،” قالت تو-تيكي.

بالطبع، لاحظت ماي الصغيرة أن شيئًا يُوشك أن يحدث. لكنها بكلّ بساطة لم تستطع الرحيل. أرادت أن تلقي نظرة على الموضع الذي تحرّر فيه البحر. لذلك تزلّجت إلى أبعد حافة جليدية، راسمة على وجه البحر شكلاً لولبيا متباهيًا.

ثمّ استدارت وعادت بسرعة قصوى فوق الجليد المتصدّع. كانت الشقوق في البداية ضيقة جدًا. وكانت تلك الشقوق تسطر كلمة “خطر”، على السطح الجليدي كلّه الذي استطاعت عينا ماي الصغيرة استجلاءه.

تراخى الجليد، ارتفع فجأة ثم غرق. وما بين لحظة وأخرى دوّت تحيات مدفع القصف والدمار، تلك التي جعلت الارتعاش المثير البارد يسري على طول ظهرها.

"أرجو ألا يهبّ الأغبياء الآن إلى نجدتي،" فكّرت. "فهذا سيفسد كلّ شيء." اندفعت بسرعتها القصوى إلى الأمام، وهي تكاد تنطوي على زلاجتها المصنوعة من سكاكين المطبخ. لكن لم يبد لها أنّها تقترب من الشاطئ.

بدأت بعض الصدوع تتسع أكثر، وتتحوّل إلى جداول. وبينها شقّت موجة غاضبة طريقها بعنف.

ثم امتلأ البحر فجأة بجزر جليدية مترجرجة، اصطدم بعضها ببعض بشيء من الارتباك. وعلى إحداها وقفت ماي الصغيرة، تنظر إلى الماء المحيط بها، وفكّرت بدون أن ينتابها أي إحساس حاسم بالخطر: "طيب، هذه مرحلة صعبة."

كان مومين ترول قد هبّ في تلك الآونة إلى نجدتها. ووقفت تو-تيكي تراقب لفترة. ثم دخلت بيت الاستحمام، ووضعت إبريق ماء على الموقد. "نعم، نعم،" فكّرت وهي تطلق تنهيدة صغيرة. "هكذا الحال دائمًا مع مغامراتهم. أن تُنقِذَ وتُنْقَذ. كم أتمنى لو يكتب أحد ما ذات مرّة عن الذين يعتنون بالأبطال بعد ذلك."

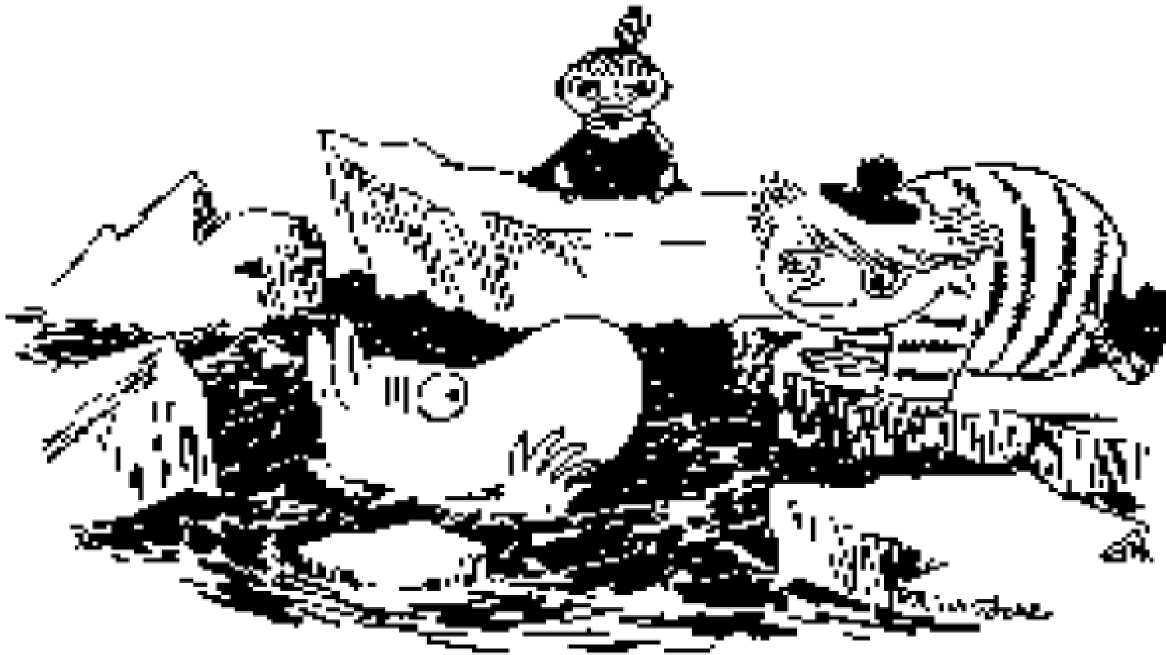
بينما جرى مومين ترول، راقب بحذر صدعًا صغيرًا جرى إلى جانبه. كان ذلك الصدع يماشيه.

ارتفع الجليد عند منطقة تراكمه، وتكسّر فجأة إلى قطع، وبدأ يهتزّ بعنف تحت قدميه.

كانت ماي الصغيرة تقف بلا حراك على قطعة الجليد الطافية، تراقب مومين ترول وهو يقفز. بدا في تلك الأثناء مثل الكرة المطاطية، أما عيناه فاستدارتا من شدة الإثارة والتوتر. وعندما حطّ أخيرًا إلى جانبها، مدّت ماي الصغيرة ذراعيها وقالت: "هلا حملتني على رأسك، حتى أتمكّن من النزول إذا اضطررت؟"

ثمّ أمسكت أذنيه بقبضتين محكمتين وصاحت: "نحو الشاطئ الآن، استدِر! "

ألقى مومين ترول نظرة عاجلة تجاه بيت الاستحمام. كان الدخان يتصاعد من المدخنة، لكن لا يوجد على المنصّة أي أثر



لروح واحدة تعصر يديها من القلق. تردّد في المُضي، وخارت ساقاه فجأة من خيبة الأمل...

“لننطلق!” صاحت ماي الصغيرة.

وانطلق مومين ترول. اندفع وقفز بأسنان مطبقة وساقين مصطكتين. وكلما حطّ على قطعة جليد طافية غسل رشاش بارد بطنه.

كان السطح الجليدي بأكمله قد تكسّر، وكانت الأمواج ترقص على طول المسافة إلى الشاطئ.

“تماسك!” صاحت ماي الصغيرة. “ها هي واحدة أخرى... ستشعر بها تحتك.. اقفز!”

وقفز مومين ترول، قفز في اللحظة المناسبة والموج يدفع قطعة جليد طافية تحت قدميه. “واحد، اثنان، ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة،” انبرت ماي الصغيرة تحسب مدّة تراقص الأمواج. “واحد، اثنان، ثلاثة، انتظر - واحد، اثنان، ثلاثة - اقفز!”

كانت ساقا مومين ترول ترتعشان، وبطنه باردة كالثلج. وكان شفق الغروب الأحمر يخترق السماء الغائمة، ولألاء الأمواج يؤلم عينيه. شعر بحرارة تجتاح ظهره، لكن البرد واصل لسع معدته، والعالم القاسي كلّه دوّم ودوّم أمام ناظريه.

بقيت تو-تيكي تراقب بيقظة من نافذة بيت الاستحمام، ثم تبيّن لها أن الأمور لا تسير سيرًا حسنًا.

“يا لغبائي،” فكّرت. “إنه لا يعرف بالطبع أنني واقفة أراقب طوال الوقت..”

خرجت بسرعة إلى المنصّة وصاحت: "أحسنتَ، أحسنتَ يا بطل!"

لكن هذا جاء متأخرًا جدًا.

كانت القفزة الوحيدة الأخيرة فوق طاقة مومين ترول، وفجأة وجد نفسه طافيًا على سطح البحر والماء يصل إلى أذنيه، بينما واصلت قطعة جليد متحمسة خبط مؤخر رقبته.



أفلتت ماي الصغيرة أذنيه وحطّت على اليابسة بقفزة أخيرة مديدة. إنه من الغريب فعلاً كيف تتدبّر المخلوقات الحاذقة مثل ماي الصغيرة أمورها في الحياة.

"أمسِك بقوّة،" صاحت تو-تيكي وهي تمدّ له يدًا ثابتة. كانت منبطحة على لوح غسيل ماما مومين، وعيناها تنظران مباشرة في عيني مومين ترول الزائغتين.

"لا بأس، لا بأس، قالت. وببطء سُحب مومين ترول فوق الحافة الجليدية، وببطء زحف إلى الأمام فوق الصخور المحاذية للماء، ثم قال: "لم تهتمي حتى بأن تنظري."

"راقبتك من النافذة طوال الوقت،" أجابت تو-تيكي بصوت مضطرب. "يُستحسن أن تدخل الآن وتتدفّأ."

"لا، سأذهب إلى البيت،" أعلن مومين ترول وهو يقف على قدميه ويترنّح قدمًا.

"عليك بشراب ساخن!" صاحت تو-تيكي من ورائه. "لا تنس أن تشرب شيئًا ساخنًا!"

كان الطريق مبللاً بالثلج الذائب، واستطاع مومين ترول أن يحسّ بالجذور وإبر الصنوبر تحت قدميه. لكن جسمه لم يكفّ عن الارتعاش من البرد، وشعر أن ساقيه زلقتان مثل المطاط.

أدار رأسه بصعوبة بالغة عندما بوغت بسنجاب صغير يقفز عابرًا الطريق.

"ربيع سعيد،" قال السنجاب بذهن شارد.

"آ.. شكرًا،" أجاب مومين ترول وتابع المشي. لكن فجأة تسمّر وحدّق في السنجاب. كان لديه ذيل كثيف منفوش لمع بحمرة زاهية في الغروب.

"هل يسميك الناس السنجاب ذا الذيل الرائع؟" سأله مومين ترول بتردّد.

"بالطبع،" أجاب السنجاب.

“أهذا أنت؟” صاح مومين ترول. “أهذا أنت حقًّا؟ السنجاب الذي التقى سيدة الصقيع العظيم؟”

“لا أتذكّر،” قال السنجاب. “تعرف حتمًا أنني لست بارعًا في تذكّر الأشياء.”

“حاوِل،” توسّل مومين ترول. “ألا تتذكّر ولا حتّى المفرش الناعم المحشو بالصوف؟”

حكّ السنجاب أذنه اليسرى، ثم قال: “أتذكّر الكثير من المفارش؛ مفارش محشوة بالصوف، وبحشوات أخرى. مفارش الصوف هي الأنعم.”

ثم اختفى السنجاب بين الأشجار. “يجب أن أتحرّى هذا لاحقًا،” فكّر مومين ترول. “أما الآن فأنا أكاد أموت بردًا، ويجب أن أذهب إلى البيت...”

ثم عطس، لأنه أصيب بنزلة برد حادّة، وهي المرّة الأولى في حياته التي يصاب فيها بالزكام.

كان موقد التدفئة المركزية خامدًا، والصالة باردة جدًا.

بكفين مرتجفتين كدّس مومين ترول عدة بسط فوق بطنه، لكنها لم تدفئه. كان يشعر بألم في ساقيه ووخز في حلقه. وفجأة

بدت له الحياة محزنة، وبدا له أنفه غريبًا وهائل الضخامة. حاول أن يطوي ذيله البارد كالثلج تحته، وعطس مرّة أخرى.

حينئذ استيقظت ماما.

لم تسمع دويّ الجليد المنهار، ولم تسمع مطلقًا عواء العواصف الثلجية، ومع أن بيتها كان مكتظًا بضيوف قلقين، لكن لا هم ولا رنين المنبه أيقظوها.

بيد أنّها ما إن سمعت مومين ترول يعطس، حتّى فتحت عينيها ونظرت إلى السقف يقظة تمامًا.

ثمّ انتصبت في السرير وقالت: "أنت مصاب بنزلة برد يا مومين ترول."

"ماما،" هتف مومين ترول، بأسنان مصطكة، "لو أتأكّد فقط من أنه السنجاب نفسه وليس سنجابًا آخر."

هرعت ماما مومين إلى المطبخ لتسخن بعض الشراب.

"لم يغسل أحد الصحون،" صاح مومين ترول بنبرة تعيسة.

"أوه، بالطبع لا،" قالت ماما مومين. "سيسير كلّ شيء على خير وجه."

وجدت بضعة عيدان من الخشب وراء دلو فضلات الطعام. تناولت قنينة عصير كشمش من خزانتها السرية، وذرور زكام ووشاح فلانيلة.

عندما غلى الماء، مزجت فيه دواء قويًا للأنفلونزا من السكّر والزنجبيل وليمونة قديمة استقرّت وراء غطاء إبريق الشاي على الرفّ ما قبل الأخير.

لم يكن ثمّة غطاء إبريق شاي الآن، ولا إبريق شاي. لكن ماما مومين لم تلاحظ ذلك مطلقًا. ولضمان مفعول الدواء غمغمت مردّدة تعويذة قصيرة فوق دواء الزكام. تعويذة علّمتها إياها جدّتها. ثم عادت إلى الصالة وقالت: "رجاءً اشربه ساخنًا."

شرب مومين ترول الدواء وشعر بحرارة طفيفة تتدفق في بطنه. "ماما،" هتف، "هناك الكثير مما يحتاج إلى التوضيح..."

"خُذ قيلولة أولاً،" قالت ماما مومين ولفّت وشاح الفلانيلة حول عنقه.

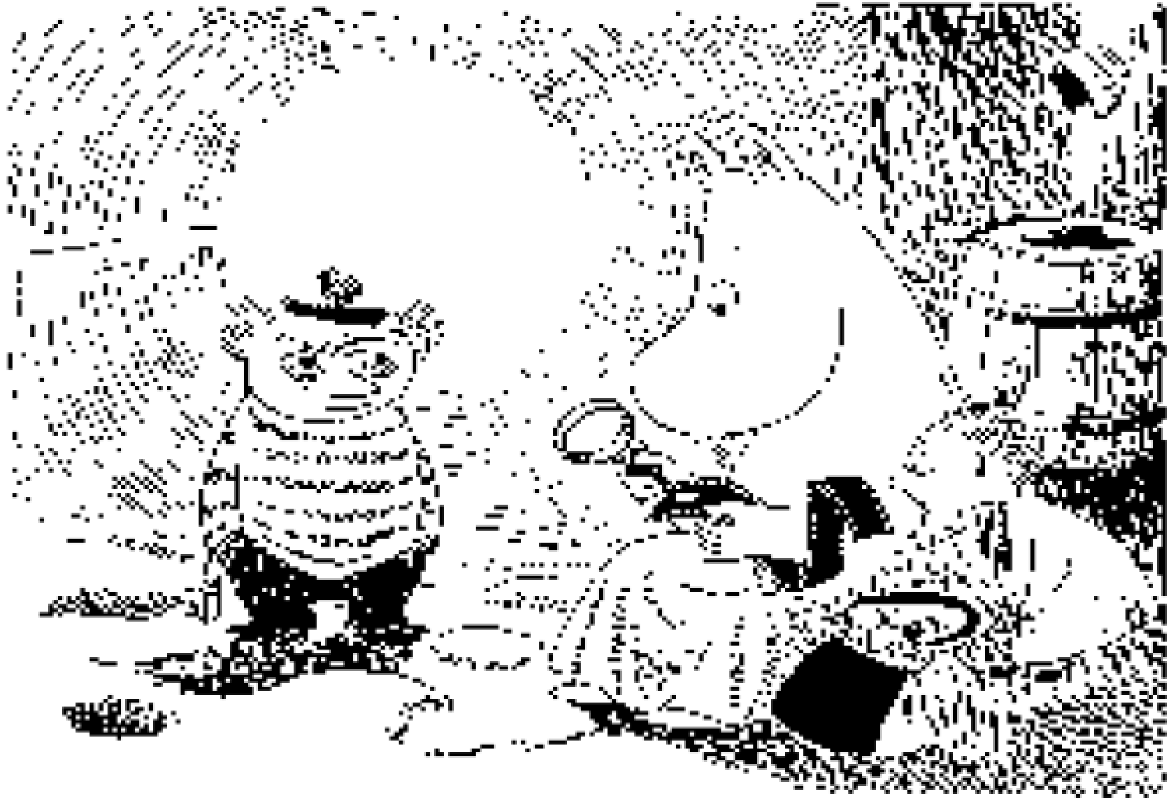
"شيء واحد فقط،" غمغم مومين ترول بصوت ناعس. "عديني ألا تشعلي النار في الموقد الخزفي، لأن جدّنا الأعلى يعيش هناك الآن."

"بالطبع،" أكّدت ماما مومين.

شعر مومين ترول على الفور بالدفء والسكينة والتخلّص من عبء المسؤولية. أطلق تنهيدة قصيرة، ثم دسّ أنفه في وسادته واستغرق في النوم بعيدًا عن كلّ شيء.

جلست ماما مومين في الشرفة تحرق قصاصة شريط فيلم بعدسة مكبّرة. تصاعد الدخان من الشريط وتوهّج، ودغدغت رائحة لاذعة لطيفة أنفها.

كانت الشمس دافئة إلى درجة أن البخار تصاعد من درجات الشرفات الرطبة، لكن البقع الظليلة المجاورة لها كانت ببرودة الصقيع.



"على المرءِ أن ينهض أبكر بقليل في الربيع،" علّقت ماما مومين.

"أنت محقّة في هذا،" وافقتها تو-تيكي. "أما زال نائمًا؟"

أومأت ماما مومين برأسها إيجابًا.

"ليتكِ شاهدته وهو يقفز على الجليد الطافي!" قالت ماي الصغيرة بفخر. "مع أنه قعد نصف الشتاء وهو لا يفعل شيئًا سوى الأنين وإلصاق الصور على الحيطان."

"أعرف، رأيتها،" أجابت ماما مومين. "لا بدّ أنه شعر بوحدة فظيعة."

"ثمّ ذهب وعثر على واحد من أسلافكم القدماء،" تابعت ماي الصغيرة.

“دعيه يروي القصّة بنفسه عندما يصحو،” قاطعتها ماما مومين. “أرى أن أمورًا كثيرة قد جرت بينما كنتُ نائمة.”

احترق شريط الفيلم نهائيًا، وإضافة إلى ذلك أفلحت ماما مومين في تشكيل ثقب أسود مستدير في أرض الشرفة.

“يجب أن أنهض قبل الآخرين في الربيع القادم،” قالت. “كم هو لطيف أن تبقى وحدك قليلاً وتفعل ما يحلو لك.”

عندما صحا مومين ترول أخيرًا، كانت حنجرته قد كفّت عن إيلامه.

لاحظ أنّ ماما مومين نزعت كيس الشاش عن الثريا، وعلّقت ستائر النوافذ. وأن الأثاث أعيد إلى ترتيبه المعهود، وأُصلِح لوح الزجاج المكسور بقطعة كرتون. وما عاد هناك أي أثر يمكن رؤيته ولا لكرة غبار واحدة.

فقط قمامة الجدّ أمام الموقد الخزفي لم تُمسّ. وهناك، وضعت ماما مومين لوحة أنيقة كُتب عليها: يُرجى عدم الإزعاج

ومن المطبخ تصاعدت قعقعة تنظيف الأواني المريحة.

“هل أخبرها عن الساكن تحت المغسلة؟” فكّر مومين ترول. “ربما من الأفضل ألا أفعل...” بقي مستلقيًا لبرهة يتساءل ما إذا كان يجدر به أن يبقى مريضًا لمدة أطول، ويدع ماما مومين ترعاه

قليلاً. ثم رأى أن الأروع من ذلك أن يعتني هو بها. فذهب إلى المطبخ وقال: “دعيني أريكِ الثلج!”

توقّفت ماما مومين عن تنظيف الأواني حالاَ، وخرجا معًا إلى



ضوء الشمس.

"لم يتبق الكثير منه الآن،" أوضح مومين ترول."ليتك رأيته في الشتاء! وصلت أكوام الثلج إلى السطح! وحينها ما كنت لتتمكني من المُضي خطوة واحدة بدون أن تغوصي فيه إلى أنفك! أترين ماما، عندما يأتي الثلج، ينْزل من السماء مثل نجوم صغيرة وباردة جدًا. وعاليا هناك في السماء السوداء يمكنك أن تشاهدي ستائر زرقاء وخضراء مرفرفة."

"يبدو ذلك لطيفًا،" قالت ماما مومين.

“نعم، ولكن مع أنك لن تستطيعي المشي على الثلج، يمكنك الانزلاق عليه،” تابع مومين ترول. “وهذا يسمى التزلّج. وهو

يجعلك تندفعين إلى الأمام بسرعة، مثل البرق، وسط سحابة من الثلج المتطاير، وعليك أن تُمعني النظر جيدًا، وإلا..”



“أتعني،” قالت ماما مومين، “أنكم تستخدمون الصواني من أجل ذلك؟”

“لا، هي أفضل على الجليد، غمغم ابنها مندهشًا قليلاً.

“نعم، نعم،” هتفت ماما مومين وهي تغمض عينيها من الشمس. “إن الحياة ساحرة جدًا، كما أرى. فها هو المرء يظنّ طوال عمره أنه لا يوجد إلا استخدام

واحد لصينية فضية، ثم يتبيّن له أنّها تصلح أكثر لغرض آخر. وكلّ سنة يقول لي الناس إنني أبالغ في صنع الكثير من المربّى، ثم فجأة يختفي كلّه!"

تضرّج وجه مومين ترول بالحمرة. "هل أخبرتك ماي الصغيرة عن...؟" سألها.

"نعم،" أجابت ماما مومين. "الحمد لله أنك اعتنيت بالناس، حتى لا يلحق بي العار، أتدري، أنا مقتنعة تمامًا من أن البيت سيكون صحيًا أكثر بلا الكثير من البسط والنثريات. أضِف إلى ذلك أن هذا يجعل تنظيفه أسهل بكثير."

غرف مومين ترول حفنة من الثلج وصنع منها كرة. لكن ماما مومين قذفتها بطريقة خرقاء، كحال جميع الأمهات، فسقطت على الأرض في مكان قريب.



"لستُ ماهرة في هذا،" هتفت ماما مومين وهي تضحك. "حتى آسف-أووو كان سيرميها بطريقة أفضل."

"كم أحبك يا أمي،" هتف مومين ترول.

تمشّيا على مهل نازلين إلى الجسر. لكنهما لم يجدا أي بريد. ألقت الشمس ظلالاً مديدة على الوادي، وكلّ شيء كان ساكنًا يرفل بسلام بديع.

جلست ماما مومين على حاجز الجسر وقالت: "والآن أودّ أن أسمع شيئًا عن سلفنا."



استيقظت العائلة كلّها في الصباح التالي في الوقت نفسه. استيقظوا بالطريقة الصحيحة تمامًا؛ وذلك على أنغام أرغن يَدوي مرحة.

كانت تو-تيكي هي من يدير ذراع الأرغن، وقد وقفت تحت حافة السقف المتقطرة ماءً بقبعتها السماوية الزرقة المقلوبة باطنًا إلى ظاهر. ولم تكن زرقة السماء نفسها أقلّ. وتحت الشمس لمعت متاريس أرغنها الفضية.

إلى جانبها جلست ماي الصغيرة، نصف مزهوّة ونصف محرجة، لأنّها حاولت بيديها الصغيرتين ترقيع بيت البيضة، وتلميع صينية الفضّة بالرمل. بيد أن هذا لم يحسّن حال الغرضين كثيرًا. إنما لا شكّ أن النوايا أهمّ بكثير من النتائج.

ومن على مسافة لمحت أختها بنت المايبل النعسانة مقبلة، وهي تجرجر خلفها بساط الصالة الذي نامت فيه خلال الشتاء.

في ذلك اليوم قرّر الربيع ألا يكون شاعريًا، ولكن مبهجًا بكلّ بساطة. كان قد نشر قطعان سحب صغيرة مشتتة في السماء؛ وكنس من على جميع الأسطح آخر ما تبقّى من الثلج، وجعل الجداول الصغيرة الجديدة تجري في كلّ مكان، لاهية في شهر إبريل كما يحلو لها.

“ها أنا ذا!” صاحت آنسة سنورك بانفعال. وبلطف حكّ مومين ترول أنفها بأنفه وقال: “ربيع سعيد!” وفي الوقت نفسه تساءل ما إذا كان سيتمكن يومًا من إخبارها عن شتائه حتى تفهمه.



رآها تجري مباشرة إلى الخزانة لتأخذ قلنسوة الربيع الخضراء.

رأى أباه يمسك بلهفة مقياس الرياح والمعول ويخرج إلى الشرفة.

كان أورغن تو-تيكي اليدوي يعزف طوال الوقت، والشمس تسكب نورها في الوادي، كما لو أن عناصر الطبيعة تبدي أسفها لأنّها أظهرت لرعاياها تلك العدائية في السابق.

"سيكون سنفكين هنا اليوم،" فكّر مومين ترول، "إنه اليوم الصحيح المناسب لوصوله."

وقف على الشرفة وتأمّل العائلة. كان الجميع يطفر في الحديقة، ونشوة المرح تعتمل فيهم، كحالهم كلّ ربيع.

التقت عيناه بعيني تو-تيكي. فاختتمت العزف، وضحكت قائلة: "أصبح بيت الاستحمام شاغرًا ثانية!"

"أرى أن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يشغل بيت الاستحمام بعد كلّ ما جرى هو تو-تيكي،" قالت ماما مومين. "حصولنا على بيت للاستحمام رفاهية زائدة. يستطيع المرء بكلّ بساطة أن يلبس ثوب السباحة على الشاطئ."

"شكرًا،" قالت تو-تيكي. "سأفكّر في هذا." ثم مضت نازلة إلى الوادي لتوقظ جميع المخلوقات والكائنات النائمة بموسيقى أرغنها اليدوي.

في هذه الأثناء، عثرت آنسة سنورك على أول نبتة زعفران باسلة شقّت طريقها من الأرض. كانت منبثقة من البقعة الدافئة



تحت النافذة الجنوبية، ولكنها لم تصطبغ بالخضرة بعد.

“دعنا نضع وعاءً زجاجيًا عليها،” قالت آنسة سنورك، “فهذا سيحميها من الصقيع في الليل.”

“لا، لا تفعلي،” هتف مومين ترول. “دعيها تقاوم وحدها. أظنّ أنّ عودها سيشتدّ أكثر، إذا لم تكن الأمور سهلة جدًا عليها.”

فجأة غمرته سعادة عارمة جعلته يرغب في البقاء وحده. فمضى يمشي نحو سقيفة الخشب.

وعندما تأكّد أن لا أحد يراه، اندفع يجري. جرى خلال الثلج الذائب والشمس تدفئ ظهره. جرى لأنه يشعر بالسعادة، ولا شيء على الإطلاق يشغل فكره.

جرى نازلاً إلى الشاطئ ومنه إلى المنصّة ثم مباشرة إلى بيت الاستحمام المُهوى والفارغ.

جلس على درج بيت الاستحمام وبحر الربيع عند قدميه.

ومن الزاوية الأبعد في الوادي لم يتناه إليه سوى صدى عزف الأرغن اليدوي، هذا إذا أرهف السمع جيدًا.

رنا مومين ترول إلى الماء تحته، وحاول أن يسترجع في ذهنه ذلك الوقت الذي امتدّ فيه الثلج بعيدًا، وامتزج بظلمة الأفق.

النهاية



الغلاف

في هَذا الكتابِ، نُواكِبُ لحظةً بلحظةٍ، مِن خلالِ تساؤلاتِ غاردر ورسومِ دوزاكين مغامرةَ صَبي يافعٍ يشدّ الرَّحالَ مسافرًا على مَتن مُستويات مُتعدّدةٍ من المشاعرِ والأفكارِ في عالَم المكان، وعلى مَتن ما يحتفِظُ به مِن ذِكريات في عالَم الزَّمان. وعندما يوغِلُ صَبِيُّنا في رُبوع الأرضِ الواسِعة، نُوغِل معهُ في دُنيا مَجدولة بِضفيرة من الأحلام والرُؤى وجملةٍ من القَضايا والمسائل المُحيِّرة، ونحاولُ مِثله أن نفهمَ البُعد الأُسطوري والعُمق السّحري لِمَاهية الإنسانِ وحَقيقته. وإذ يطرحُ في طريقهِ السؤالَ تِلو السؤال مُستَمِدًا مَضامينَ تِلك الأسئلةِ من وَعيهِ أحيانًا ومن لا وَعيهِ في أحيانٍ أُخرى، يَتبيّن لنا أنَّها أسئلةٌ مفتوحةٌ وذات تَفرّعات لا نِهائية، تعملُ كلّها على تحفيزِ الأذهانِ، تارِكةً للمرءِ الحُرية في انتقاءِ ما يُناسبه من أجوبةٍ.

ومِن خلالِ تَداخُل طَرح جوستاين غاردر الفلسَفي ورسومِ أكين دوزاكين البَديعة، يتشكَّلُ شيئًا فشيئًا نسيجُ قصةٍ عن الصَّداقةِ والحبِّ والحزنِ وامتلاكِ الشَّجاعةِ الكافيةِ لِيرسمَ المرءُ بنفسهِ خُطوطَ حياتهِ الخاصّةِ. وعلى الرَّغمِ من أنَّ فئةً من الناسِ قَد ترى أنَّ هذه القضَايا المَطروحة هي مَفاهيم ثابتةٌ وموثّقة، فلا شكّ أنَّ الكثير منّا، صغارًا كنّا أو من البالغين، سنجدُ في هَذا الكتابِ مَعبَرًا نحوَ آفاقٍ فكريةٍ أوسع مما أَلِفناه، قد تستدعي منّا مُراجعةَ ما سبقَ أن اعتبرناه من المُسلّمات.

كتابٌ مُصوّر يحبسُ الأنفاسَ بِما يَزخرُ به مِن جَمالٍ في الشكلِ وفي المضمونِ.